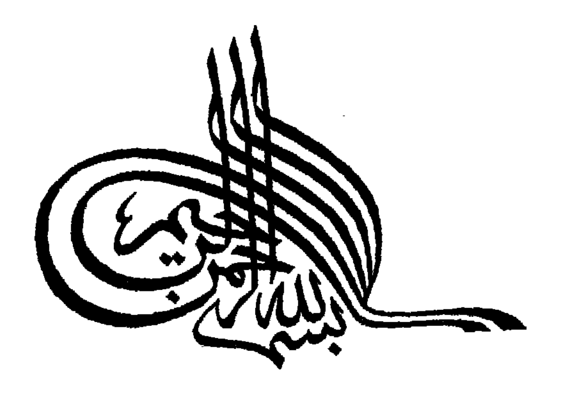
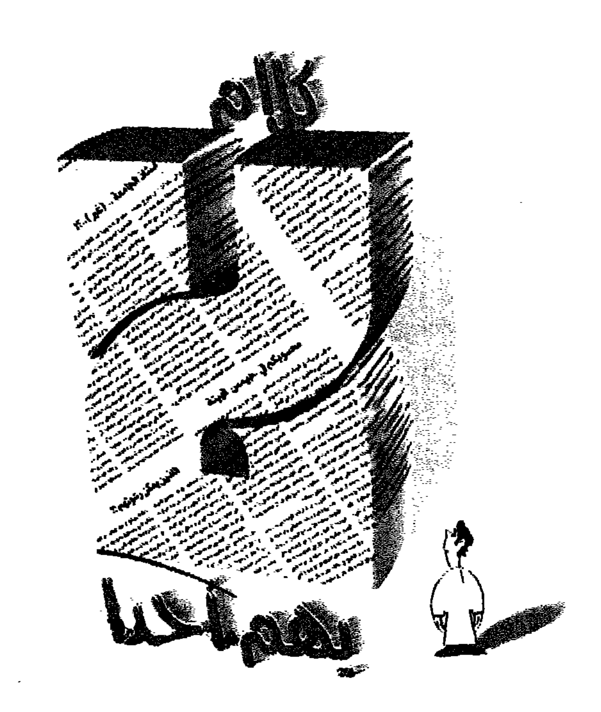


محمد الفايدي



© محمد الفايدي، ١٤٢٣هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الفايدي، محمد
كلام لا يهم أحداً - جدة
٠٠٠ ص، سم
ردمك ٥ - ٧ ،- ٦٧٤ - ٩٩٦٠
١- المقالات العربية السعودية - العنوان
ديوي ٠٨١ ٣٧٢٨ / ٢٣
رقم الإيداع: ٣٧٢٨ / ٢٣
ردمك ٥ - ٧ ،- ٦٧٤ - ٩٩٦٠

الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

الإهـــداء

إلى ابني .. خالد ..

أهدي إليك هذا الكتاب وأنت ماتزال ولدا «مفعوصا» يعاقر زجاجة الحليب .. وأفلام الكرتون ..

ويملأ البيت شقاوة وضجيجا ..

وحين تكبر غداً ، قد تفكر أن تصبح كاتباً كأبيك ..

وأنصحك ياولدي أن لا تفعل .. فزمنُنا هذا متخمٌ بكُتَّاب «القطاع الخاص» الذين حولوا الكتابة إلى بحيرة تعيش فيها «القروش»، وتموت فيها الأسماك الصغيرة، والدلافين البريئة ..

أما زمنُكم، فالكتابة فيه قد تصبح «مُحيطاً» تحتلهُ أساطيلُ الدجل والنفاق .. وتغرق فيه زوارق البرآءة والنقاء.

لقد وقع أبوك في عشق الكتابةِ منذ أكثر من خمسة وعشرين عاما ..

ولم يكن العاشق الوحيد ..

كان هناك عشاقٌ من كل صنفٍ ولون .. ولكنهم لم يكونوا جميعا عشاقا «صادقين» ..

فمنهم من استغلوا طيبة قلبها .. وتسلقوا على أكتافها .. ثم ذبحوها ، وتاجروا بأعضائها .. وباعوا دمها إلى بنوك الدم ..

ومنهم مَن كان يقدم لها كل يوم وردة .. ويكتبُ فيها كل يوم قصيدة .. ويبكي إذا أصابتها نزلة برد..

وكان أبوك منهم ..

وحينما كان يزورها في بيتها ، كان يرى كُتابا «مُتمشلحين» يجلسون في «الصف الأول» .. ومعظمهم من «مهندسي الديكور» و «جراحي التجميل» ..

ويرى كُتابا يجلسون في «الصف الأخير» .. ومعظمهم من حملة «الشهادة الابتدائية» و شهادة «سوء السيرة والسلوك» و شهادة أن لا إله إلا الله . .

وكان أبوك منهم ..

ومن يومها وهو مازال يجلسُ في «الصف الأخير» ..

هل فهمت ؟؟

أبوك

اهدائهم: «الى العزيز بول.. تقديراً وامتناناً لـ«عمل ضروري» أديّته بنجاح، يُغفل عن تقديره.. عادة»..!!

ومع هذا «التماس» العميق والمؤثر بين ما انتهى اليه «بول» مع «سادته» فيما قبل، وإخوانه وأصدقائه فيما بعد.. وما بلغه «الفايدي» بالإخلاص من زملائه واصدقائه.. الا ان «الإثنين» يختلفان عن بعضهما في مشوار حياتهما. فـ«الفايدي» لم يعمل خادماً عند أحد او لـ«أحد»، ولم يكمل دراسته الإعدادية.. فضلاً عن «الثانوية» فـ«الجامعية»، ولكنه التقط نفسه بداية من خلال مزق الصحف التي كان يحضرها «مربيه» و«كافل يتمه» مع عودته الى المنزل، وقد لف بها شيئاً من «الطعام.. ليأكله «هو» و«زوجه» وهذا «اليتيم» الذي أخذه من أهله من عربان «أملج» وصياديها ليربيه بـ«كل» ما يستطيع، وليعلمه «بقدر» ما يستطيع وليعطه «حق اختيار» مستقبله الذي لم يكن يعلمه آنذاك ذلك الرجل الطيب والإنسان «الشيخ مهنا القوفى»، ولكن الذي كان يعلمه «الشيخ» يقيناً.. هو رفض «اليتيم» لدعوة أعمامه وابنائهم بأن يكون مثلهم: «صياداً» أو «بحاراً» أو حتى «ناخودة» على ظهر واحدة من تلك السفن الشراعية التي كانت تداوم الإبحار على شواطىء الساحل الشرقي للبحر الأحمر متنقلة بين «أملج» و«ضبا» و«ينبع».. فاذا بَعُدت بها المسافات وساعدتها الرياح أبحرت الى «جدة» جنوباً أو الى «سفاجة» او «الغردقة» على سواحل الشاطىء الغربي للبحر الأحمر..

من مزق الصحف البالية.. وتلك التي مضى على صدورها شهرٌ او شهران.. ثم من تلك الصحف الصادرة حديثاً التي كان يوفر ثمن شراء عدد أو عددين منها من «تحويشة الأسبوع» والتي كان يقرأها جميعاً، بل يأكلها ويشربها ويتنفسها على وجه الدقة.. تعلم هذا «اليتيم»، فكانت «الصحافة» هي بحق مدرسته «الإعدادية» و«الثانوية» التي تتلمذ على صفحاتها.. اما «جامعته» فقد كانت في «حرم» اذاعات القاهرة السائدة والرائجة في الخمسينات والستينات من القرن الماضي بما كانت تبثه من الأخبار والتعليقات والأغاني الوطنية والبرامج الثقافية والسياسية والمسلسلات والحكايات والأسرار.. بـ«حرارتها» و«نبرة» صدقها واخلاصها المختلف عن كل ما سبقها.. وعن كل ما حولها، ليسأل نفسه.. بعد ان اخذت تزحف به سنوات اليفاع الى العشرين وما بعدها: من أنا..؟ وأين أنا..؟

فمن هو «الفايدي».. الذي عرفته «الصحافة» وعرفه قراؤه لأكثر من ثلاثين عاماً: صحفياً غيوراً.. نبيلاً.. عنيداً.. صلباً لايلين..؟؟

* * *

ان لـ«الفايدي» عبر أيامه ومراراته وانكساراته المتراكمة وانتصاراته القليلة.. اكثر من قصة، لعل أهمها.. قصتان: قصته مع «نفسه» ويتمه وحيرته بـ«ابتدائيته» التي خرج بها من سني دراسته النظامية، وقصته مع «الآخرين» الذي أحبهم عبر مشواره الصحفي الطويل.. ورأى فيهم نجوماً سارية ساطعة واعلاماً خفاقة فتعلق بها وبهم ليكتشف في لحظة امتحانهم بأنهم ما كانوا «التبر» الذي رآه وأعجبه وبهره..!!

الى جانب هاتين القصتين.. ربما تأتي قصة ثالثة صغيرة.. هي قصته معي أو قصتي معه، لكن هذه القصص قد تقربنا في النهاية من الإجابة عن سؤالنا: من هو «الفايدى».. وربما تتخطاه بالإجابة عن سؤال آخر لا يقل أهمية: أين هو «الفايدي».. من تيار الصحافة السائد.. ومزاميره وطبوله..؟

فبعد ان انطوت به الأيام والسنون وهو يتقلب على جمر يتمه وحرمانه ويعيش مع «كافله» وزوجه عيشة «الكفاف».. متنقلاً من «بيت» لآخر.. من تلك البيوت التي أسماها أدب الناس وخلقهم بـ«البيوت الشعبية»، اذ لم تكن كبيوت جدة القديمة.. ولم تكن كـ«عماراتها» ودورها الحديثة.. ولكنها كانت شيئاً خلف ذلك كله.. شيئاً يصون عفاف ساكنيها، ويحفظ انفتهم وكبرياءهم.. وهي تقيهم شتاء جدة القصير وصيفها الطويل، ولكنه تعلم في تلك «البيوت الشعبية» المتعددة: انسانية الإنسان.. وخلق الرجال.. وصبر القلوب على صروف الأيام والليالي.. الى جانب «كرم» النفوس الذي لا علاقة له بـ«المال» قل أو كثر، فلم يعرف «الفايدي» الذي انتقل مع «كافله» الى «جدة» وهو بين السابعة والثامنة.. انه جلس يوماً الى «طعام» مع كافله ووالدته - بالتربية - وحدهم.. منذ ان كان لكافله «بُقيْلة» في الشارع و«قُطيْرة» في البحر.. لا تأتيان له - ولهم - بأكثر من «حبة» سمك والى جوارها شيء من «الأرز» وبعدهما «فنجان من الشاي».. في الأعلى، او شيء من الخبز وقطعة من الجبن وبعدهما فنجان الشاي الأثير في الأدنى.. والى ان دارت الأيام دورتها البيضاء وأصبحت معها «البقيلة» بقالة و«القطيرة» سفينة، فقد كان باب بيتهم بلا مزلاج كما

اهدائهم: «الى العزيز بول.. تقديراً وامتناناً لـ«عمل ضروري» أديّته بنجاح، يُغفل عن تقديره.. عادة»..!!

ومع هذا «التماس» العميق والمؤثر بين ما انتهى اليه «بول» مع «سادته» فيما قبل، وإخوانه وأصدقائه فيما بعد.. وما بلغه «الفايدي» بالإخلاص من زملائه واصدقائه.. الا ان «الإثنين» يختلفان عن بعضهما في مشوار حياتهما. فـ«الفايدي» لم يعمل خادماً عند أحد او لـ«أحد»، ولم يكمل دراسته الإعدادية.. فضلاً عن «الثانوية» فـ«الجامعية»، ولكنه التقط نفسه بداية من خلال مزق الصحف التي كان يحضرها «مربيه» و«كافل يتمه» مع عودته الى المنزل، وقد لف بها شيئاً من «الطعام.. ليأكله «هو» و«زوجه» وهذا «اليتيم» الذي أخذه من أهله من عربان «أملج» وصياديها ليربيه بـ«كل» ما يستطيع، وليعلمه «بقدر» ما يستطيع وليعطه «حق اختيار» مستقبله الذي لم يكن يعلمه آنذاك ذلك الرجل الطيب والإنسان «الشيخ مهنا القوفى»، ولكن الذي كان يعلمه «الشيخ» يقيناً.. هو رفض «اليتيم» لدعوة أعمامه وابنائهم بأن يكون مثلهم: «صياداً» أو «بحاراً» أو حتى «ناخودة» على ظهر واحدة من تلك السفن الشراعية التي كانت تداوم الإبحار على شواطيء الساحل الشرقي للبحر الأحمر متنقلة بين «أملج» و«ضبا» و«ينبع».. فاذا بَعُدت بها المسافات وساعدتها الرياح أبحرت الى «جدة» جنوباً أو الى «سفاجة» او «الغردقة» على سواحل الشاطيء الغربي للبحر الأحمر..

من مزق الصحف البالية.. وتلك التي مضى على صدورها شهرٌ او شهران.. ثم من تلك الصحف الصادرة حديثاً التي كان يوفر ثمن شراء عدد أو عددين منها من «تحويشة الأسبوع» والتي كان يقرأها جميعاً، بل يأكلها ويشربها ويتنفسها على وجه الدقة.. تعلم هذا «اليتيم»، فكانت «الصحافة» هي بحق مدرسته «الإعدادية» و«الثانوية» التي تتلمذ على صفحاتها.. اما «جامعته» فقد كانت في «حرم» اذاعات القاهرة السائدة والرائجة في الخمسينات والستينات من القرن الماضي بما كانت تبثه من الأخبار والتعليقات والأغاني الوطنية والبرامج الثقافية والسياسية والمسلسلات والحكايات والأسرار.. بـ«حرارتها» و«نبرة» صدقها واخلاصها المختلف عن كل ما سبقها.. وعن كل ما حولها، ليسأل نفسه.. بعد ان اخذت تزحف به سنوات اليفاع الى العشرين وما بعدها: من أنا..؟ وأين أنا..؟

فمن هو «الفايدي».. الذي عرفته «الصحافة» وعرفه قراؤه لأكثر من ثلاثين عاماً: صحفياً غيوراً.. نبيلاً.. عنيداً.. صلباً لايلين..؟؟

* * *

ان لـ«الفايدي» عبر أيامه ومراراته وانكساراته المتراكمة وانتصاراته القليلة.. اكثر من قصة، لعل أهمها.. قصتان: قصته مع «نفسه» ويتمه وحيرته بـ«ابتدائيته» التي خرج بها من سني دراسته النظامية، وقصته مع «الآخرين» الذي أحبهم عبر مشواره الصحفي الطويل.. ورأى فيهم نجوماً سارية ساطعة واعلاماً خفاقة فتعلق بها وبهم ليكتشف في لحظة امتحانهم بأنهم ما كانوا «التبر» الذي رآه وأعجبه وبهره..!!

الى جانب هاتين القصتين.. ربما تأتي قصة ثالثة صغيرة.. هي قصته معي أو قصتي معه، لكن هذه القصص قد تقربنا في النهاية من الإجابة عن سؤالنا: من هو «الفايدى».. وربما تتخطاه بالإجابة عن سؤال آخر لا يقل أهمية: أين هو «الفايدي».. من تيار الصحافة السائد.. ومزاميره وطبوله..؟

فبعد ان انطوت به الأيام والسنون وهو يتقلب على جمر يتمه وحرمانه ويعيش مع «كافله» وزوجه عيشة «الكفاف».. متنقلاً من «بيت» لآخر.. من تلك البيوت التي أسماها أدب الناس وخلقهم بـ«البيوت الشعبية»، اذ لم تكن كبيوت جدة القديمة.. ولم تكن كـ«عماراتها» ودورها الحديثة.. ولكنها كانت شيئاً خلف ذلك كله.. شيئاً يصون عفاف ساكنيها، ويحفظ انفتهم وكبرياءهم.. وهي تقيهم شتاء جدة القصير وصيفها الطويل، ولكنه تعلم في تلك «البيوت الشعبية» المتعددة: انسانية الإنسان.. وخلق الرجال.. وصبر القلوب على صروف الأيام والليالي.. الى جانب «كرم» النفوس الذي لا علاقة له بـ«المال» قل أو كثر، فلم يعرف «الفايدي» الذي انتقل مع «كافله» الى «جدة» وهو بين السابعة والثامنة.. انه جلس يوماً الى «طعام» مع كافله ووالدته -بالتربية- وحدهم.. منذ ان كان لكافله «بُقيْلة» في الشارع و«قُطيْرة» في البحر.. لا تأتيان له -ولهم- بأكثر من «حبة» سمك والى جوارها شيء من «الأرز» وبعدهما «فنجان من الشاي».. في الأعلى، او شيء من الخبز وقطعة من الجبن وبعدهما فنجان الشاي الأثير في الأدنى.. والى ان دارت الأيام دورتها البيضاء وأصبحت معها «البقيلة» بقالة و«القطيرة» سفينة، فقد كان باب بيتهم بلا مزلاج كما



يقولون، مفتوح على مصراعيه طوال ساعات النهار.. لكل قاصديه من جدة، ولكل الوافدين اليه من «أملج».. بحثاً عن عمل او طبيب او فرصة دراسية للأجيال الجديدة من الأبناء..

لقد غدا «فنجان الشاي» وجبته الرئيسية التي يملؤ بها «معدته» على الدوام والتي ستشكو في قادم أيامه من «قَرَح» لا تطيب.. وهي تنتقل بآلامها المبرحة من موقع لآخر.. لتستقر في «قولونه» الذي غدا مع الأيام ومراراتها واحباطاتها وكأنه ميئوس الشفاء، اما وجبات عقله فقد كان يجدها -في بداياته- في مزق الصحف البالية فالحديثة كما قلت.. ثم في القليل من الكتب التي لم يكن ليعرف أيها أفضل له من الآخر.. على أن اذاعات القاهرة من خلال بثها الطويل والشامل والمختلف كانت تتعهد وجدانه بفكر وطني قومي وحداوي خلاب.. بهره أشد الإبهار ليجد نفسه -رغم صغر سنه- وكأنه احد ابناء الستينات او ضحاياها امام المتغيرات التي اقتحمت حياة الأمة منذ منتصف السبعينات الميلادية من القرن الماضي..

.. أقول، بعد ان انطوت تلك الأعوام بـ«قلتها» و«وفرتها».. بافراحها القليلة واحزانها الكثيرة، وبلحظات «الرضا» بـ«المقسوم» التي كانت تظللها، وغدا في صدر شبابه على مشارف الخامسة والعشرين من عمره.. جاءته لحظة الإعتماد على النفس عبر بوابة لم يكن ليتمناها، عندما رفض الإقتران بابنة اخت «الشيخ» -كافله ومربيه- لإن التقاليد -التي رضخ لها «الشيخ» ولم يرضخ لها «الفايدي»- لم تكن تسمح له برؤية فتاته قبل الإقتران بها، ليخرج الى عرض الطريق والحياة وفي قلبه غصة فراق «الشيخ» وزوجه.. ليبحث عن «المستقبل» الذي لم يتبينه بعد، والذي رفض من أجله -دون ان يدريه- أن يكون صياداً أو بحاراً او «ناخودة».. عندما دعاه اعمامه وابناء عمومته لان يكون مثلهم، ليبدأ حياته الجديدة.. موظفاً بـ«وزارة الزراعة» في الصباح.. ومتسكعاً في المساء على دور الصحف ومكاتبها الكثيرة في جدة حيث الكواكب والنجوم والأسماء اللامعة والأعلام من زوارها، ليقترب منها مستمعاً .. فمتابعاً.. ثم ليجرب حظه و«بخته» في كيفية التقاط الأخبار وكتابتها واعدادها، وعندما نشرت جريدة «الرياض» اول خبر له.. لم ينم فرحاً وقد بدا له ان ذلك قد يكون هو الميل الأول في مشوار مستقبله الصحفي.. فأخذ يواصل اعداد الأخبار وارسالها الى «الرياض» او تسليمها لجريدة «عكاظ» بالتوازي .. ايام ادارة الصديق العزيز الأستاذ عبد الله الجفري لها في المرحلة الانتقالية بين خروج مدير تحريرها الهياب الاستاذ عبد الله الداري، وقدوم

رئيس تحريرها الجديد بنَفَسِه السيال الصديق العزيز الاستاذ رضا لاري.. لتنشر له هذه مرة، ولتغفل الأخرى أخباره مرة..

ولان «عائد» المخبرين الصحفيين «غير المتفرغين».. من نشر اخبارهم، لم يكن ليسمن او يغني من جوع في تلك الأيام.. فقد أضاف الى مهنتيه: مهنة ثالثة.. هي قيادة «عربات الأجرة» في المساء والى منتصف الليل.. ليحسن «دخله».. وليعيش الحياة في شموسها.. وليرى الناس عن قرب في أدق وربما في أغرب واحرج تفاصيل حياتهم، ثم ليُثبت فيما قبل وبعد لـ«كافله» الشيخ وزوجه المغصوص بفراقهما.. بأنهما صنعا رجلاً يعتمد على نفسه ويُعتمد عليه، فقد ظل يتردد عليهما كل أسبوع.. وأحياناً كل يوم.. لكن «غضبة الشيخ» عليه لم تبرحه واحزان «امه» عليه لم تفارقها.. فلم ينته ذلك «الهم» الصغير الكبير من حياتهما وحياته الا بعد خمس سنوات..

انطلق «الفايدي» صحفياً.. بين «الرياض» و«عكاظ».. لينخرط بعد ثلاث سنوات في العمل صحفياً «غير متفرغ» في عكاظ، ثم متفرغاً فيها.. فتفرد الصفحات لتحقيقاته الصحفية الحية والمثيرة والجذابة التي بدأ بها مشوار شهرته الحقيقي، كتحقيقاته الجميلة والجريئة عن «سائقي سيارات الأجرة» ومعاناتهم.. و«اصحاب البناشر» وتعاساتهم.. و«اصحاب وايتات» المياه وجبروتهم.

لقد اثارت تلك التحقيقات اعجاب القراء، وأدهشتهم بـ«مفرداتها» و«دقائق» تفاصيلها.. فقد كانوا لا يعرفون ان كاتبها صاحب «تجارب شخصية» فريدة على هذا النحو. لقد أثبتت تلك التحقيقات الصحفية لـ«زملائه» وللوسط الصحفي.. بأنه صحفي حتى العظم، وأنه معجون باتربة الشوارع وشموسها وعوادم سياراتها..!

* * *

ومع تردد أسمه، واتساع قاعدة القراء الذين بدأوا يتعرفون عليه ويعجبون به.. بدأت قصته «مع الآخرين». عندما أخذت تفتح له الأبواب تباعاً لإقامة صداقات وعلاقات مع تلك الأسماء اللامعة من نجوم الصحافة والأدب والفكر التي عشقها وتعلق بها قبل أن يراها.. والتي سرعان ما امتدت به الى غيرهم من رؤساء ومسئولي الإدارات والمصالح الحكومية المختلفة حتى غدا الفايدي - فيما بعد - «عراب» علاقات الصحفيين والأدباء مع تلك الإدارات والمصالح..

لقد أحبه هؤلاء واولئك لـ«بساطته» وجرءته. لـ«صدقه» وصراحته.. ولـ«وجهه» الواحد دائماً!! اذ أن «الفايدي» كان حقاً بين الندرة من الصحفيين و«المثقفين» - بصفة عامة - الذين لا يملكون سوى وجه واحد: فهو «واحد» بين قوله وفعله .. وهو واحد فيما يُعلنه ويُضمره.. وهو «واحد» في مواجهة أصدقائه وخلف ظهورهم. لايعرف المداهنة والمجاملات بل ولا التربيت على الأكتاف بكلمة أو كلمتين.. فضلاً عن «النفاق» بألوانه الشاحبة الكئيبة، وقد صدق حدسه في محبة أكثرية هؤلاء واولئك له.. ولكن لم يصدقه في بعضهم..!!

فبعد أن رسخت أقدامه بين محرري «عكاظ» المتفرغين.. وأسند اليه الإشراف على الصفحة الأخيرة وأخبارها ولقطاتها وصورها بالتناوب مع بعض من زملائه، وبدأ ينتشي بكتابه أول عامود صغير في حياته بعنوان «ملاحظة» - وهو الذي تطور فيما بعد في مجلة اقرأ وأصبح عنوانه هو عنوان هذا الكتاب «كلام لا يهم أحداً» - وقع على الأرجح في سوء تقدير لأحد الأخبار «الطريفة».. عندما نشر خبراً يتحدث عن قصة حفل زفاف كلف الآف الريالات لـ«قطة» على «قط» آخر!! وان الحفل أقيم بأحد الفنادق الكبرى.. وان حضوره كانوا من القطط «الجميلة» و«السمينة»، فلم يقُرأ الخبر بروح الطرافة التي كتب بها والتي كان يستهدفها أصلاً.. بل قُرىء على نحو مغاير ومبالغ فيه، بل وذهب الظن ببعض القراء - غير العاديين - بأن للخبر مغزى «تشهيرياً».. وأنه يقصد «فلاناً» صاحب «القطة».. و«فلاناً» صاحب «القط»، فاستُدعي رئيس التحرير.. وجرى تحقيق موسع معه لمعرفة الأبطال الحقيقين للقصة.. كاد ان ينتهي بـ«عزله» لولا وساطات وسعي بعض اصدقائه من كبار القوم، ورغم انتهاء «الموضوع» بسلام.. الا ان رئيس التحرير آثر القيام بـ«فصل» الفايدي تحسباً وخشية وقوعه في نشر ما هو اسوأ من قصة زفاف «قطة»..!! ورغم المحاولات المهنية والانسانية التي بذلها اصدقاء «الفايدي» لثني رئيس التحرير عن قراره.. الا انها لم تنجح أمام إصراره او «تعنته» ليجد «الفايدي» نفسه في عرض الطريق.. وبعيداً عن محبوبته الثانية «عكاظ»، وهنا بدأ الإضطراب يعتري صحته الهزيلة أصلاً..!

واذا كانت ظروف الصحافة قد اعانته في تلك المرحلة.. على الخلاص من أولى الأزمات الحادة في حياته بسبب «الآخرين»، فقد تكررت أزمته بصورة أكثر حدة.. عندما وجد نفسه مضطراً الى الإستقالة من «اقرأ» لعدم انسجامه فكرياً وسياسياً مع ثاني رووساء تحريرها.. طاوياً بذلك ثاني

مراحل زمنه الجميل في الصحافة، ليعمل مديراً لمكتب جريدة «الندوة» في جدة.. فلم يجد فيها انسجامه الوطني والسياسي القديم مع «اقرأ». لقد كان نضجه الوطني والسياسي أنذاك.. أكبر من ان تحتمله «المطبوعتان» وأبعد من ان تطلبهما اى صحيفة او مجلة أخرى.. فآثر الإبتعاد عن معشوقته الصحافة إجمالاً -رغم ما يسببه حرمانه منها من آلام وأحزان ولوعة- والإتجاه مرغماً الى العمل الحر.. ليفتتح -بمشاركة واحد من أحب اصدقائه- «سوبر ماركت» يبيع فيه الخضروات والفواكه والمستلزمات المنزلية..

ولأن ذلك لم يكن منطقياً وبكل المقاييس.. فقد استجاب سريعاً لدعوة أحد اصدقائه من كبار الإعلاميين والإعلانيين عندما دعاه للعمل «أميناً» لمكتبة يشارك في ملكيتها مع احدى شركات الإعلان الكبرى المعنية بالمكتبات، وهكذا كان..

ولكن بعد عام او عامين.. اكتشف «الفايدى» بأن «الشركة» و«صديقه» يريدان ان يأخذا منه بأكثر مما يعطيانه.. او هكذا «حَسَبها» بـ«عواطفه»، ولم يكن -في تقديري- مخطئاً.. لتضطرب صحته هذه المرة أكثر فأكثر.. بعد ان تضافرت ظروفه المادية التي اخذت تترنح، مع حرمانه من «هواء» التعبير عن نفسه.. ليقع فريسة لهما: نفسياً وعضوياً..!!

* * *

لقد عرفت «الفايدي» منذ سنوات مشواره الأول والطويل مع «عكاظ».. والى أن فُصل منها، فكنت ارى فيه وكانه «مندوب» محدودي الدخل، ومحدودي الإمكانات، ومحدودي المكانة.. في «بلاط الصحافة»، ولذلك سعدت -كما سعد هو شخصياً- بعودته الى «عكاظ» مع رئاسة تحرير الزميل الأستاذ «هاشم عبده هاشم» لها.. الا انه لم يجد تلك «المساحة» التي كان يرجوها ويتطلع اليها، فدعوته للعمل معي في «مجلة اقرأ» محرراً بـ«الشئون المحلية».. ليصبح رئيساً له فيما بعد بـ«التقاسم» مع زميله وزميلي الصحفي التربوي الخلوق: الأستاذ سالم مريشيد.

كان «الفايدي» آنذاك في أواخر الثلاثينات أو مشارف الأربعينات من عمره.. صحفياً يملك حِساً وطنياً عالياً، وأحلاماً لا حدود لها، ورغبة جامحة في تعديل «المايل» وربط «السايب» والتصدي لمبدأ «الخيار والفقوس» السائد والرائج إدارياً..

ومع اقترابي منه.. ومعاشرتي له يوماً بعد يوم.. كنت اكتشف نقاءه وشفافيته وحميته التي

لا تتردد ولا تتهيب من اقتحام اي موضوع مهما كان شائكاً. لقد كان في ذلك كشاعر العامية المصرية الملتهب الأستاذ «احمد فؤاد نجم».. الذي احسن المثقفون المصريون عندما أسموه بـ«الفاغومي»، وهي كلمة وان كان لا وجود لها في «لسان العرب» أو «الوسيط».. الا انني كنت أفهمها وأشعر بها - على نحو أحسب انه لم يكن ليخالف فهم الذين صاغوها - وكأنها تعبر عن «غشامة» الإقتحام، و«جلبة» عدم الإكتراث.. وهما تغليان وطنية وتفوران حماسة لـ«مناطحة» كل الصخور والسدود..

انني ما زلت اذكر ذلك اليوم الذي اقتحم «الفايدي» فيه مكتبي ثائراً.. وبيده نسخة من كتاب صدر حديثاً لكاتب «براجماتي» من الدرجة الأولى يتحدث فيه عن حياة مجموعة من العصاميين.. وقد صَدره بـ«فصل» مطول عن احدى الشخصيات المعروفة بـ«ثرائها» وجاهها ومناصبها الكبيرة التي تقلدتها، وهو يقول لي: «ارأيت..»؟ ثم يضيف: «فأين نحن وأمثالنا؟ أرجو أن تأذن لي في الرد عليه»..؟

فأجبته ضاحكاً وعلى طريقتي في امتصاص غضبه: «غض الطرف.. فإنك من نمير..»، ثم اضفت مهوناً عليه بأنه ليس من مصلحته ان يُغضب كل العصاميين الذين تحدث الكتاب عنهم وعن عصاميتهم بسبب ذكر واحد او اثنين او ثلاثة ليسوا منهم..

قال وقد هدأ بعض غضبه: أهكذا ترى..؟

قلت: نعم: ثم أضفت صادقاً: «على أية حال.. لا تقلق، فعندما يُكتب التاريخ الحقيقي لـ«العصاميين».. فلن تكون خارج صفحاته»..

وفي مرة أخرى.. جاءني بصحبة كاتب - من اصدقائه واصدقائي - في معيته «مقال» يرد فيه على كاتبين هاجماه بشدة في جريدة «الندوة».. كما هاجما مجلة «اقرأ» وتوجهاتها في ذات الوقت، وبعد ان قرأت المقال وقد كان يغلي حرارة.. اقترحت عليهما إحداث «تعديلين» فقط ليهدأ بهما المقال، ثم طلبت من «الفايدي» أن يتابع تنفيذ «التعديلين» بمكتبه، وعندما عادا الي ليطمئناني على تنفيذ التعديلين.. اكتفيت بالإطلاع على «اولهما» ولم ار «ثانيهما» الا بعد ان نُشر المقال لافاجأ بانه كان دون التعديل الثاني، ولكنني مع ذلك لم أغضب ولم أثر.. فقد كنت على ثقة من «حب» الفايدي لي ولـ«اقرأ» واخلاصه لكلينا، وان حماسته أو «فاغوميته» وحرصه على رد الصاع صاعين.. هي

التي جعلته يتجاوز عن تنفيذ «التعديل الثاني»، لأتحمل وزر ذلك السهو او القصد.. وقد كان وزراً ثقيلاً..!!

على أية حال.. لم اعد أذكر كيف ولد عنوان عاموده الأسبوعي الجميل في اقرأ: «كلام لا يهم احداً».. ليصبح اليوم عنواناً لـ«كتابه» هذا، الا انني اذكر على وجه اليقين بان «العامود» بـ«عنوانه».. كان يشكل جزءاً من منظومة «الأعمدة» التي كانت تنشر أسبوعياً في صفحات «اللقطات المحلية».. والتي كنا نعرف بان «محتوياتها» ستكون دائماً على درجة قصوى من «السخونة» لا تسمح معها بـ«عناوين» من نفس الدرجة، فكان ان حرصنا ـ مبدئياً ـ على ان تكون عناوينها هادئة: كـ«ملحوظة» للزميل والصديق العزيز الأستاذ ـ الدكتور فيما بعد ـ «عمر يحي».. و«أضعف الإيمان» للزميل والصديق الأستاذ سالم مريشيد.. و«على ألسنة الناس» الذي كان «مشاعاً» بين محرري المجلة.. لمن لديه موضوع محلي جدير بالنشر، ولذلك كان توقيعه: بـ«احدهم».. تأكيداً لتعدد كتابه، وهكذا، فيما أحسب.. وُلد عنوان «كلام لا يهم أحداً».. والذي كان في حقيقته يهم كل قراء المجلة لـ«صدقه» وحرارته وحيويته، لكن قيمة تلك الأعمدة .. كانت تستمدها حقيقة من «المساحة» التي كانت تتيح لـ«كتابها» ان يعبروا عن أنفسهم بأعلى درجات الصراحة والمواجهة أو المكاشفة مع التزامهم الصدق الكامل فيما يكتبونه..

ولذلك فقد كان في معية همومي.. مع مغادرتي «اقرأ».. الخوف على «الفايدي» وعلى عاموده «كلام لا يهم أحداً» من ان لا يستمر، بعد أن اخذ شهرة او «شبهة» انه يتضمن معالجات حادة لا تهضمها «معدة» الصحافة او لا تطيقها، وهذا ما حدث فعلاً.. اذ شعر «الفايدي» ـ الذي قارب نضجه السياسي نضجه الوطني عبر سنوات عمله في «اقرأ» ـ بضرورة التخلص من ذلك العنوان أو التراجع عنه الى أي عنوان آخر.. فكان عنوانه الذي يكتب تحته الآن بين حين وآخر.. او بين غضبة رؤساء التحرير عليه مرة، ورضاهم عنه مرة أخرى.. هو: «شيء من حتى».. ليبقى عنوان «كلام لا يهم أحداً» وقفاً على كتابه «الأول».. الذي لما يدر بعد عنه شيئاً..!!

ان كتاب «كلام لايهم أحداً» ـ الذي بين يدي قارئه الآن ـ ليس تاريخاً لمرحلة او فكراً سياسياً مجرداً او بحثاً منهجياً عميقاً في قضايا المجتمع.. ولكنه مجموعة من المقالات في قضايا الوطن وهموم انسانه.. تمثل بحق خريطة أفكار «الفايدي» الصحفية وهمومه الوطنية، وقد كتب معظمها

خلال زمنه الجميل في «اقرأ».. ايام ان كانت صحته.. كـ«حريته»، وحريته.. كـ«صحته» في تمامها..!! فـ«الفايدي» يبقى من اولئك القلائل الذين لا يعيشون بـ«الخبز» وحده.. ولكنه يعيش بـ«الحرية» معه، لذلك.. كان هذا التناسب الطردي الدائم والمستمر في حياته: بين حريته وصحته. فاذا انتعشت حريته.. ارتوت صحته، واذا ضمرت «حريته».. سآءت صحته..!!

وأحسب ان امامه ـ بعد هذا ـ كتاب آخر يروى فيه تفاصيل قصة حياته الغريبة: من «بحار» محتمل الى «صحفي» أكيد.. بمكابداتها وافراحها وانتصاراتها القليلة واحزانها الكثيرة : حياة صحفي من وسط الناس.. صحفي من عرض الطريق..!!

جدة ٧ / ٧ / ١٤٢٣هـ

١٤ / ٩ / ٢٠٠٢م

عبد الله مناع

أحياناً تتعطل لغة الكلام بسبب كلمة مكتوبة أو عبارة قيلت، مثل التي قالها «إبراهيم أمان» وبلع ريقه ثم صمت ولم يستطع استنطاقه إلا الصحفي حسين الحجاجي عندما سأله: هل تعتقد يا عم إبراهيم أن بيعك لهذه الصناديق الخمسة من «الساردين» كفيل بتسديد ما عليك من دين؟!

قال عم إبراهيم بأقصر عبارة: ربنا يفرجها يا ابني.

ومع ذلك لم تسقط دمعته، بينما لابد أن دموعاً كثيرة سقطت على صفحات الجريدة.. وعم أمان يتحدث عن رحلته الخمسين الطويلة مع التعب والعرق والشقاء، منذ أن جاءت شركة أخرى لتأخذ المقاولة في ميناء جدة البحري ويجد نفسه بعد خدمة مضنية في الشارع، لايجد ما يسد به رمقه من قوته وقوت عياله غير الاستدانة، لشراء قارب صيد صغير يبحر فيه مع نجمات الفجر الأولى ولايعود إلى أسرته إلا بعد المغيب بين المغرب والعشاء. ما هذا الكفاح والشقاء والتعب الذي يهد الحيل ليصطاد عم ابراهيم «شوية» سمكات يبيعها أحياناً على أول زبون يصادفه، ليذهب مسرعاً إلى منزله ليكحل ناظريه بأطفاله وأسرته قبل ان تستسلم أجفانهم إلى النوم، بعد أن طالت غيبته طوال النهار وجزءاً من الليل داخل أمواج البحر .. ثم ماذا؟

ثم فجأة يضطر أن يبيع القارب الذي اشتراه تقسيطاً، بعد أن جاءت شركة أخرى تكفلت بشؤون النقل، فلم يعد لهم كأصحاب قوارب صغيرة حق النقل ولا حتى الصيد الذي أخذت حق احتكاره «هوامير» القوارب الكبيرة، إلى درجة أنهم لم يتركوا لا ساقطة ولا لاقطة إلا أدخلوا أنوفهم فيها، حتى ما يتعلق بقوت الكادحين الغلابه.

وكانت قمة المأساة عندما سأله الصحفي عن البيت الذي يسكنه مع أطفاله.. أتدرون ماذا قال؟ لقد قال: ليته يكون ملكاً لي.. ثم صمت قليلاً ثم أكمل: اسكت يا ابني ولا تقلب علي المواجع، كانت الفرصة أمامي ولكني لم استغلها، وقد دفعت ثمن غلطتي هذه سبعة عشر ألفاً لإيجار المنزل الذي يؤويني وأسرتي.

وكانت الكارثة الأكبر في حياة عم إبراهيم والتي لم يكن له ذنب فيها، عندما سأله الحجاجي عن تقديمه طلباً لقطعة أرض من أراضي المنح. وهنا أطلق زفرة تقطع نياط القلب ثم أجاب: تقدمت منذ خمسة عشر عاماً بطلب منحة، لكنني لم أحصل عليها، فأردفت بطلب آخر مضت عليه سبع سنوات ولم أحصل على شيء حتى الآن.

وكانت قمة الوفاء، عندما فرط في بداية حياته في وظيفة المستقبل، عندما قبلوه ولم يقبلوا صديقه الذي

تقدم معه في شركة بيترومين في بداية عملها.

أنموذج من الرجال العصاميين المكافحين الأوفياء، يندر أن يوجد مثيل لهم في هذه الأيام، لو لم تكن حقيقة ماثلة أمامي بشحمها ولحمها لقلت أن ذلك الصحفي فبركها من الخيال. عشت يا عم إبراهيم، يامن جعلت من اللقاء معك طعماً حقيقياً للحياة يا رجل.

البسطاء الطيبون من الناس، لا يقرأون عادة الصفحات الأولى من الصحف ولهم أسبابهم في ذلك، ثم أنهم متقيدون بالمثل القائل: شهر ليس لك فيه شيء، لا تعده ولا تعد أيامه وايضاً لا تقرأ صحفه.

سألني جاري: ما الشيء الذي يدعوك إلى قراءة الصفحات الأولى في الصحف؟

قلت: الأخبار المفرحة.

قال: إذن، لماذا تغيرت عادتك المزمنة وأراك اليوم تبدأ القراءة من الصفحة الأولى بدلاً من الأخيرة .. فلابد أن هناك ما يدعوك إلى ذلك.

جاري اليمني تعوَّد أن يراني يومياً طالعاً من الدرج عائداً من عملي، أقلب بعض الصحف مبتدئا من الصفحة الأخيرة، إلا انه هذه المرة الوحيدة التي يراني أبدأ من الصفحة الأولى .. ولهذا كان استغرابه واستفساره وسؤاله أيضاً .. وقبل أن أجيبه سأنقل لكم مشاعري أولاً.

ليس من عادتي أن أتوقف كثيراً عند الأخبار والمانشيتات السياسية الطويلة العريضة في الصحف اليومية، واكتفي عن ذلك بمطالعة إحدى القنوات الجادة، للاستماع لما تبثه من أخبار متتابعة «تغم» القلب أحياناً .. وهي النتيجة الطبيعية لما يحدث في العالم العربي من فرقة وتطاحن وتشرذم، مسلماً بذلك ان هذا قدرنا وقدر أبنائنا الذين سيذوقون الأمرّين في قادم الأيام، لمزيد من الفرقة والتطاحن والتشرذم التي ستزداد علاماته استفحالاً، بعد أن أخذت ورقة التوت في الصمود العربي تسقط شيئاً فشيئاً.

ولكن لا أدري، كيف فوجئت صباح الثلاثاء الماضي بأخبار ومانشيتات صحفية مفرحة جداً ولأول مرة، تتحدث عن الاتفاق السعودي اليمني وحل مشكلة الحدود .. مما دفعني إلى قراءتها من الصفحة الأولى بدلاً من قراءتها من الأخيرة .. وهذا خلاف كبير للعادة.

ولا شك أن جاري اليمني الذي خطف مني مجموعة الصحف التي أعود بها إلى المنزل عادة في هذا اليوم، لدليل على أن الاتفاق قد أسعد الشعبين السعودي واليمني وازاح عن كاهلهما مشكلة ظلت في أخذ ورد، حتى تلاقت النوايا أخيراً وانحلت في ساعات.

ولم أشعر بـ«عبده»، هذا العامل البسيط إلا وهو يعود إلي بعد قليل منشرحاً مسروراً ليقول: أنت مدعو عندي اليوم على العشاء، تتويجاً بهذه المناسبة السعيدة.

سألته: هل إلى هذه الدرجة أسعدتك الاتفاقية؟ وإذا به بفطرته اليمنية المعروفة يقول: إن هذه

الاتفاقية التي انتظرناها طويلاً، ستتمخض قريباً عن أشياء وأشياء تعود على البلدين بكل ما يأملانه من تطور وازدهار.

وأضاف: إن اليمني في بلدكم يشعر أنه سعودي .. وإن الروابط التي تجمع بين السعودي واليمني روابط جذورها عميقة ومتينة بعمق ومتن تاريخ البلدين ومن عشرات السنين. وكشف لي ظهره وقال مبتسماً : إذا لم تدر فاعلم أن هذا الظهر قد حمل الكثير من كتل البلك والطوب لبناء البيوت والعمارات التي شيدت في بداية طفرة الازدهار السعودي في عمليات البناء والتشييد. وقد لا تصدق أنني اعمل منذ عشرين عاماً عند تاجر سعودي وثق في، لدرجة أنني أصبحت واحداً من الأسرة – إن لم أكن أهمها – فهل بعد هذا ماهو أهم من الإخاء والمحبة والارتباط بين الشعبين اللذين قدرهما أن يكون تلاحمهما واحداً وليس اثنين، مهما حاول الأعداء والوشاة أن يدقوا الإسفين بين البلدين قاصدين تباعدهما.. وكأني بهؤلاء الأعداء والوشاة، يتمزقون الآن ألماً وحسرة ويأكلون في أنفسهم، بعد أن أضاعت عليهم الاتفاقية الكثير من خططهم الدنيئة.

إجازة .. لتلبية طلبات الحريم..!

لا شيء يجعلك تستمتع بالعطلة، سواء كانت طويلة أو قصيرة، إلا أن تأخذ كفايتك من النوم «الحلال» الذي كنت تتشوق إليه، عندما كان دوام العمل يتطلب منك الاستيقاظ الساعة السادسة صباحاً.

وبعضنا هكذا، دائماً يضيع أيام العطلة في أشياء تافهة نندم على تفاهتها، عندما نعود إلى أعمالنا حيث تُسأل: أين قضيت عطلة العيد؟؟ فتجيب وكأنك تؤنب نفسك: لقد قضيتها في النوم.

لكن على أية حال يبدو، أن من يقضي عطلته نائماً أحسن من ذلك الذي يقضيها مكتوماً على إحدى الكنبات وفي يده الريموت ينتقل به من قناة إلى أخرى، بحثاً عن البرامج التافهة التي تبثها أغلب القنوات العربية. وتبدأ بمذيعات اللحم الأبيض ثم تنتهي باتصال شخص هايف تافه يقول للمذيعة: أهدي تحياتي وقبلاتي إليك.!

حتى يبدو أننا نشرنا هذه الظاهرة وأصبح حتى صغارنا الذين لم يبلغوا الحلم بعد، يتغزلون بالمذيعات «الزلط» أمام أمهاتهم، لدرجة أن إحداهن لا تتورع من أن ترد على صغيرها والغيظ يقطع أحشاءنا وهي تقول له بسخرية مريرة: طالع لأبوك، وهذا الشبل من ذلك الأسد.!

صدقوني، إن الجلوس في الدار أحياناً كارثة على واحد لا يعرف أن يستغل فترة الإجازة فيما يفيد وقد تمنيت شخصياً أن تكون إجازتي مفيدة لقراءة كتب أجلت قراءتها لمثل هذه الإجازة، ولكن هيهات مع شريكة حياة هي الأخرى مؤجلة الكثير من طلباتها وزيارات المجاملة لمثل هذه الأيام باعتبارها امرأة عاملة. ولم تكد تفتح اجندتها بتوزيع أيام الإجازة على عدد طلباتها الخارجية، حتى دعوت عليها من كل قلبي بذلك اليوم الذي يسمح للمرأة فيه بقيادة السيارة، لكي «أنفك» من شرها وكثرة طلباتها التي أحياناً تكون محقة فيها، ولكن أمام زوج يركبه ألف عفريت إذا طلب منه مشوار عائلي خارج المنزل، وإذا بها عندما سمعت دعوتي عليها تقول: من فمك لباب السماء.. وأضافت ضاحكة : إذا لم ترد تلبية طلبات «الحريم» .. «هات لنا سائق».!!

احتكار مجهول النسب؟!

مع الأسف الشديد ، يبدو أن شركة كهرباء الغربية «ضاربة طناش» عن كل ما يكتب عنها، سواءً الآن أو من قبل واللي ما هو «عاجبه» يشرب من البحر الذي تطل إدارتها عليه.

يقطع التيار عنوة عن بعض المشتركين في هذا الجو القائظ الشديد الحرارة .. وتعيده على أقل من مهلك، لدرجة أن تليفونات الطوارئ إما مشغولة أو لا ترد على أحد.

وهي إضافة إلى ذلك، تتعامل مع مشتركيها من أبراج عاجية ، وإذا تنازل وتعطف موظف فيها وتكلم مع مشترك «مغبون» انقطع عن شقته التيار، فإنه يقول للمراجع الذي تفصد وجهه عرقاً وتعبا ومشقة حتى وصل إليه: «أترك عنوان منزلك ونحن نأتي إليك»!!

و«نأتي إليك» هذه دائما ما تتبخر مع الهواء، لأنهم لن يصلوا ولا يريدون أن يصلوا، ما دامت كل الأمور على « أحسن ما يرام» والمكيفات، وأجهزة التبريد، كلها تعمل وبانتظام في مكتبه ومنزله العامر، وزملائه كذلك، ورؤسائه ومرؤوسيه وجميع موظفي شركة الكهرباء الغربية والذين لا أظنهم يشكون مما يشكو منه المشترك «الغلبان»، الذي سواء انقطع عنه التيار الكهربائي أو لم ينقطع .. فلابد من دفع قيمة الفاتورة التي أضيفت – إليها أخيراً – رسوم العداد والتي تبلغ خمسة عشر ريالاً شهريا «للمائة إمبير» وعشرة ريالات للـ« ٦٠ إمبير»، حتى لو كان المنزل مقفلا بالضبة والمفتاح.

وليس هناك من حل، إلا إذا كنت ميسور الحال وقادراً.. فقط عندها يمكنك أن تضع عائلتك في إحدى «الجمسات» وتسافر إلى أقرب المناطق الباردة في الداخل أو الخارج، بعيداً عن عكننة انقطاع التيار الكهربائي في جدة وإزعاج موظفي الشركة، الذين يحتاجون إلى دورات تدريبية مكثفة في أسلوب التعامل الحضاري مع المشترك الذي يعرف أن رواتب الموظفين آخر كل شهر تصرف من قيمة استهلاك فاتورته، التي اتضح أنها مقابل خدمة رديئة ومبالغ مرتفعة مضافة إلى قيمة الاستهلاك.

أما إذا لم تكن ميسوراً وقادراً فالأمر إذن لله .. فلا خيار لديك إلا الصبر والشكوى إلى الله .. ويبدو أن شركة كهرباء الغربية معنية بتعذيب هؤلاء، بالذات الذين لا حول لهم ولا قوة .. فهي تقطع عنهم التيار متى تشاء وتعيده متى تشاء لمعرفتها أنها وحدها تحتكر هذه الخدمة المهمة .. ولو كانت هناك شركة منافسة لها ، لما أقدمت على قطع التيار عن مشترك واحد، لا تعيده إلا بعد رجاءات وتوسلات ومحاولات مستميتة من المراجعات والبهدلة والصد ..ثم – فوق ذلك – تشعره أنها المتفضلة عليه، بدلا من تعويضه عما أصابه وعائلته من ضرر نفسي ومادي في أجهزة الكهرباء.



لهذا فقد استخرتُ الله وهربت إلى مدينة الطائف، خشية أن ينقطع التيار كما انقطع عند الجيران الذين ذاقوا الأمرين لكي أعيده لهم.

ولكن القلب ينفطر على من لا يستطيع أن يبارح منزله إلا إلى عمله، لظروف معيشته ومحدودية دخله الذي لا يسمح له بأكثر من تأمين الفطور والغداء فقط لا غير، وذلك لتسير سفينة العائلة.

xxx

(وقفة)

الحظوظ والمحسوبيات، تنقل أحيانا «أنصاف المؤهلين» إلى المقدمة .. أما الكفاءات فتجلس في الصفوف الأخيرة التي يخيم عليها الظلام ويضربها النسيان.

أحلام ماتت وأخرى تبخرت

يبدو أن أكثر الأحلام التي كنا نحملها في أعماقنا خلال ساعات نومنا ويقظتنا، قد تبخرت وأهيل عليها التراب.

أما الأحلام العامة والكبيرة .. فها نحن منذ أربعين عاماً نحلم، ونحلم، ونحلم بوطن اسمه «فلسطين» .. فلا جاء الوطن ولا استُردت فلسطين.

وكل صباح نفيق ونستيقظ على مجنزرات ودبابات شارون الإسرائيلية معربدة في شوارع غزة والخليل وباقي الأرض المحتلة .. ولا نملك أمامها سوى مزيد من الحجارة ودماء شهداءٍ شباب في مقتبل العمر، تداري بها الأمة العربية والإسلامية المنكسرة مهانة أكثر من أربعين عاماً، كلها ذل وانكسار.

من يهن يسهل الهوان عليه   مـا لجـرح بميت إيـلام

قاله يوماً طيب الذكر أبو الطيب المتنبي، وكأنه بيت شعر مفصل على مقاس الأمتين العربية والإسلامية ، ولا سواهما، بالرغم من أن الرجل مات من مئات السنين وكأنه – فيما أظن – كان يستشرف أحداث المستقبل، فقال هذا البيت الشهير وترك لنا فيما بعد مهمة تداوله كل صباح ومساء وبشيء من الآلام والحسرة التي تدمي القلوب.

أما إذا سألتم عن الأحلام المحلية ، فلا تسألوا عن شيء إن يبد لكم يسؤكم .. فعلامات النكد تجدها أمامك في كل موطئ قدم وفي كل التفاتة عين .. وأكثر من هذا وذاك عندما تصل البلوى ويمتد أذاها إلى تطويق مسار حياتك ويصبح من المستحيل الإفلات منها، بعد أن التفت على عنقك كما يلتف السوار على معصم اليد.

ثم تسألون وتقولون: لماذا تفشت أدوية الكآبة والحالات النفسية وكثرت حالات الانتحار والتفكك الأسري وحالات الطلاق؟ السبب لأننا لم نستطع أن نجيب على تلك الاستفسارات المحورية بصراحة وبصدق وموضوعية، وخاصة من قبل من يهمهم ويعنيهم الأمر – وان كان الأمر يعنينا جميعاً – عندها يمكن التحول إلى مجتمع سليم وصحيح وخال من الأمراض والعقد الاجتماعية، التي كبلت وقيدت تحقيق كثير من الأحلام التي وصلت أخيراً إلى الاكتفاء بمقولة: «كل عيشك واسكت».

أخيراً رأيت أحمد سعيد – ماغيره – يتحدث على الهواء مباشرة!

ومن لايعرف أحمد سعيد، ممن عاش مرحلة الستينيات وبدايات السبعينيات، فهو لم يعرف شيئاً عما كانت تموج به المنطقة العربية في تلك المرحلة من أحداث، كان العرب خلالها على الأقل لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه الآن، من حالة تردٍ بلغ مداه حداً أوشكنا معه أن نقول للعدو الاسرائيلي .. «الصديق شامير والعزيز باراك»!

رأيت الرجل..

وتذكرت إذاعة صوت العرب. ومهما كانت توجهات البعض من أطروحاتها السياسية، إلا أنني كنت أستمع لإذاعة تُصَدّر لي جرعات الثقافة المكثفة والأدب والمعلومة والأغنية الراقية في أحسن ما يكون العطاء، لدرجة أن مؤشر الراديو لا يتحرك من مكانه.

وقد أنام مع الفجر على صوت المذيع عندما كان المذيع يمثل لنا نحن جيل الستينيات و السبعينيات شيئاً كثيراً من معلوماته وثقافته وسرعة بديهته في إجراء الحوارات التي ما عادت موجودة في الوقت الحاضر ولا ممكنة، بعد أن تغير الحال إلى حال آخر وأصبحنا نسمع فيه المذيع ولا نفهم منه شيئاً بعد أن اختلطت عليه الأوان ولم نعد نعرف هل هو مهرج أم مذيع .. أم اختلط المذيع بالمهرج وتداخلا فكونا لنا خلطة بلا طعم ولا رائحة.

لكنني أعترف أن المذيعة جوزيل خوري – مجرية اللقاء «حوار العمر» مع أحمد سعيد – وهي مذيعة نادرة وسط غث المذيعين والمذيعات الكثر – استطاعت أن تمتع مشاهدي قناة الـ«إل بي سي» اللبنانية بأمتع الحوارات التلفزيونية المباشرة الجريئة وتستنطقه بما كان يحجم عن قوله، بل وتورطه أحياناً بما لا يجب قوله .. وقد عرفنا من خلاله تفاصيل كثيرة ودقيقة وكبيرة عن تلك المرحلة، وكيف كانت الطامة الكبرى في هزيمة ٦٧ وأحداثها التي اشتركت فيها أغلب القوى الكبرى وبعض القوى الصغرى، حتى لا يتسنى للعرب رفع رؤوسهم عالياً .. وتتحول «الجرثومة» الإسرائيلية على أيديهم إلى بعوضة.

أحمد سعيد .. رغم أن صوته الجهوري غرر بنا في معرفة الهزيمة في حينها، إلا أنه لم ينكر ذلك، لكنه قال للمذيعة الناجحة التي كانت تصارحه وتستفزه وتقاطعه وتفاجئه باسئلتها: عليك يا عزيزتي أن تقارني وضع العرب في ذلك الوقت بوضع العرب هذه الأيام وما وصلوا إليه من مهانة، فردت عليه على

الفور مستفزة: بأن هزيمة ٦٧ هي التي أوصلت العرب إلى هذه المهانة رد عليها. لا .. لا .. لا تقولي ذلك فالهزائم دائماً تولد الانتصارات، لكن الذي أراه الآن هو ارتماء في الأحضان والتلذذ بهذا والافتخار به، لدرجة أن أصبح الاسرائيليون ومن خلفهم الامريكان يأكلون ثرواتنا ويرمون لنا بالفتات.

ومهما اتفقنا أو اختلفنا مع هذا الرجل، إلا انه دلل على أن الفضائيات العربية وكثرتها في الوقت الحاضر لو وجهت التوجيه الصحيح إعلامياً لتغير وجه العالم العربي من الرمادي إلى الأبيض الناصع البياض.

اختلفت الأسباب والأهداف واحدة

لا تندهشوا ..

فاحتلال رئيس التحرير لزاويتي الأسبوع الماضي، لن يمنعني من معاودة السيطرة عليها مرة أخرى. وإن كنت أطمع أن يرسل من يقتلع لوحة الدعاية والاعلان من على منزلي، بعد أن توالت إنذارات مراقب البلدية، اعتقاداً بأن الوكالة مازالت قائمة. وكدت أن أحدثكم عن المواقف الجادة والطريفة، لولا خشيتي من أن يمارس صلاحياته «المحببة لنفسي» أحياناً.

اتصل بي الزميل علي خالد الغامدي، وشعرت من كلامه أنه متفق مع رئيس التحرير، ومع إعجابه بكلمته التي جاءت بديلاً لكلمتي .. وعلل ذلك بأن رئيس التحرير من صلاحياته أن يرى ما لايراه الكاتب، سواء كان هذا الكاتب راضياً او غاضباً.

ولم أشعر أن الكاتب في حاجة أحياناً لأن يدافع عن مكتسباته، لولا ذلك القارئ الذي ينتظر منه أن يقول شيئاً ذا قيمة.

والأحجار أدمت الأرجل.

والأدوية فتكت بالجسم

والحموضة مرتفعة للآخر.

ومازلت متعلقاً بأمل أن يكون الطريق مستقبلاً ممهداً وسالكاً للسير وخالياً من الحفر والمطبات و«الجراويل» التي تجرح ولا تسيل دماً.

مبررٌ لرئيس التحرير أن يستعمل صلاحياته، إذا شعر أن العين لا يمكن أن تعلو على الحاجب – خوفاً عليّ– لكن وبالرغم من ذلك، لديه «قدرة إقناع» يستطيع من خلالها أن يبرد ثورة أعتى الكتاب والمحررين وإن كان ليس مطلوباً منه ذلك في كل الاحوال.

دخلت مكتبه معاتبا فخرجت أتلمس طريقي، بعد أن شربت أكثر من كأس ماء مثلج من يد الساعي أحمد عثمان، وكأن الاثنين متفقان على معرفة الطرق والأساليب التي يمكن أن تهدئ أي محرر يرى أن كلامه الذي كتبه لم يكتب مثله أحد قبله ولا بعده وهذا «بيت القصيد»، فأحياناً تطغى النرجسية على الكاتب.

وأحياناً يطغى الضمير المهني، وأحياناً تشعر أن العمل مع «الربان» – مهما اختلفتما في الأسباب والدوافع – يوصلك إلى وحدة الهدف.

أستاذ الجامعة ..(غير)..؟!

ما السر– والآن بالذات – أن يخرج علينا بعض أساتذة جامعة الملك عبدالعزيز بجدة من مكاتبهم ويشمرون عن سواعدهم وأقلامهم، مطالبين بضرورة إعادة هيكلة الجامعة وأنظمتها من جديد ؟

أين كانوا؟

أحدهم بدأ الآن – وبعد خراب مالطة – يكتب سلسلة مقالات في هذا الشأن، هي عبارة عن تنظير لا أكثر .. وكان الأولى به أن يخرّجَ لنا من قسمه في الجامعة على الأقل طلبة ولو بنصف المستوى الذي ينظر لنا به في الجريدة.

وقد استكثر علينا هؤلاء البعض، عندما تعرضنا وبعض الزملاء لنقد الجامعة وبعض أساتذتها من قبل، إلى الدرجة التي وصلت إلى أن يطلقوا علينا أوصافاً ونعوتاً ما أنزل الله بها من سلطان، كان أبسطها – على وجه التحديد – «صفة الأمية».

واسألوا هذا المسؤول في رئاسة التحرير هنا ماذا وجه له حينها من عتب ونعت شديد ساخن من نوع: كيف تترك لهذا الأمي «الفايدي» صاحب الشهادة الابتدائية المغشوشة أن يستل قلمه ويقول ما قاله في الجامعة وفي أساتذتها؟ أحدهم قال وهو يضرب على صدره غاضباً: ألا تعرف «ياسيد» أن هؤلاء الأساتذة يخرجون لكم كل عام جيلاً من الكفاءات والقدرات الجامعية الشابة والنادرة التي تقوم عليها نهضة البلد وتطوره وازدهاره!؟

وكلام كثير آخر قالوه، حتى ظننا حينها أن بعض أساتذة الجامعة غير بقية البشر من المؤهلين علمياً وعملياً من خارج الجامعة .وأصبح هذا البعض من أساتذة الجامعة، كلما دخل إلى مكان فيه جمع من الناس يدخله كالطاووس نافشاً ريشه إذا رأيته ماشياً فلابد أن تقول: يا أرض احفظي ما عليكِ ، وإذا تحدث فهو يتحدث في كل شيء وأي شيء و«يا ويلك ويا سواد ليلك» لو أعطيته أحقية الكلام، فسوف ترى كيف يمارس كل انواع التنظير المصحوبة «بالأنا» الكبيرة المضخمة .. وليته ينتهي من شرح وجهة نظره في دقائق، بل عليك أن تنتظر طويلاً حتى ينتهي من شهوة الكلام، وكأنه يلقي محاضرة طويلة ومملة أمام طلبته في قاعة المحاضرات. أتريدون توضيحاً أكثر!؟

أستاذ الجامعة هنا «غير – وفي بلاد بره – غير»، لكن الفرق بين غير عندنا وغير في بلاد بره فرق شاسع وكبير، إذا ما عرفنا أن الأستاذ هناك متبتل في محراب الجامعة بحثاً .. واطلاعاً .. أما هنا فالبعض منهم مشغول عن ذلك باللهاث وراء المادة وحب الشهرة والبروز على حساب تنمية وتطوير

خلفياتهم الاكاديمية وطلبتهم .

وحين يحذو هؤلاء «البعض» حذو أساتذة الجامعات الحقيقيين ، يمكن عندها إعادة النظر في كل ما قلناه هنا ماضياً وحاضراً .

مع .. أطيب تحيات واحترامات هذا «الأمي» المدون اسمه أعلاه.

عزّ عليّ، أن أكون متخلفاً عن ركب الحضارة والزملاء تتراقص أناملهم على أجهزة الكمبيوتر، وأنا كالأطرش في الزفة، لا يجد سوى قلمه الذي يسحبه من غمده ثم يفرد الورقة البيضاء من غير سوء وهات يا عصر أفكار قد تأتي أحياناً وتهرب في كثير من الأحيان، لدرجة أكاد اتصل بذلك القابع في محرابه يجيز المقالات - السيد علوي - لأقول له : أنا في عرضك يا سيد تعفيني اليوم من الكتابة، وإذا به يدغدغ عواطفي أحياناً بمجاملته التي لو لا شيء من الثبات لركبني الغرور الذي لم يترك أحداً لم يتلبسه، حتى من كتب كلمتين «مجعرمة» اعتبر نفسه كاتباً نحريراً يا خلق الله.

ولم يكد زميلي عبد الرحمن يعلن عن عصيانه المحبب علي، بعد أن زودتها قليلاً في تكليفه بكتابة مقالاتي على الكمبيوتر، حتى شمرت عن ساعدي وقلت ما لها إلا أنت يا ولد. ومن لم يأكل بيده لم يشبع!

المهم في ظرف يومين، كنت متمكناً من فك طلاسم هذا الجهاز الخطير في هذا العصر والفضل يعود أولاً لزميلي عبدالرحمن وثانياً لهذه الأنامل «البدوية» التي تكتب لكم الآن على جهاز الكمبيوتر، بعد أن أودعت القلم والورقة أرشيف المتروكات وقلما آخر أزين به جيبي الأعلى لزوم «البيرستيج».

أطرف ما يمكن أن تتصوروه، هو أنني فتحت فصلاً دراسياً انضم إليه الزملاء محمد صادق دياب وعلي حسون ونجيب يماني وابنتي الصغيرة «إنتظار». والفصل الأسبوعي لا يكلف الواحد منهم أكثر من الف ريال في الدورة الواحدة!

طبعاً محسوبكم مثله مثل دكاترة الغفلة والمشعوذين وضاربي الودع ولاعبي الثلاث ورقات .. فقد استطعت - بطريقة أو بأخرى - أن أقنع هؤلاء الزملاء بالانضمام إلى فصلي الدراسي بدون عناء .. بل وبرجاءات منهم ضعفت أخيراً أمامها!

للعلم هذه هي الكلمة الوحيدة التي لن يقول لي السيد علوي أكتب غيرها، باعتبارها مثل رداء الجمعة الذي ينفع ولا يضر .. لكنه يفيد أحياناً في الاعتماد على النفس!

أجزم أن بعض الكتاب قد فقد شهية الكتابة، بعد أن تحولت بعض الكتابات عنده إلى نوع من أكل العيش والاسترزاق الذي يفرض عليه أحياناً أن يمارسه، تحت ظروف ملحة ليس لها بديل سوى أن يغمد قلمه في جيبه وأفكاره داخل رأسه، ثم يحترم نفسه ومكانته الكتابية عند بعض القراء ويقول بينه وبين نفسه: من الأفضل لي أن أتوقف من أن أكتب شيئاً لست مقتنعاً به، أو يفرض علي وأقبله تحت ظروف الحاجة المادية الملحة، التي يستغلها بعض رؤساء التحرير ويملون على هذا الكاتب شروطاً غير مباشرة، تجعله إذا قبل واحداً منها مرة انفرطت السبحة وأصبح يقبل فيما بعد بقية الشروط، التي قد تكون في كثير من الأحيان مجحفة وماسخة لشخصية الكاتب أمام قرائه.

ليس هذا فقط، وإنما في دهاليز الصحافة هناك أشياء وأشياء تطبخ على نار هادئة، فيما يخص بعض الكتاب الذين يتعرض بعضهم لإراقة ماء الوجه، كلما اتصلوا للاطمئنان على إجازة مقالاتهم، وجدوا أمامهم ردوداً باهتة وأعذاراً واهية من مدير مكتب، عمله الأساسي تصريف هؤلاء ومن لايريد رئيس التحرير توصيلهم به.

نعرف أن العمل الكتابي فعل راق ويرقى أحياناً إلى درجة التقديس .. يمارسه بعض الكتاب بنوع من الحب والواجب الذي يتجاوز كل الأفعال الأخرى الآنية والعادية التي يمكن أن يقوم بها أي شخص آخر .. لكن متى يتم هذا؟

قد يتم في مناخ صحفي وكتابي صحي وسليم، أجد أنه في هذه الأيام قد تردى كثيراً في زمن بوادر ليست مشجعة حتى على حفظ ماء الوجه، الذي أخذ بعض الكتاب يقبلون بها راضين بتمريغ أقلامهم في الأوحال، من أجل حفنة دريهمات كانوا في غنى عنها من أجل ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم الذي أراه بأم عيني التي - سيأكلها الدود - وقد بدأ يتلاشى كما يتلاشى السراب في عز الظهيرة، من جراء مقالاتهم التي تدمل الكبد، بخضوعها لأشكال متعددة من التوجيه والإملاء اللذين يحولان أي عمل كتابي إلى نوع من الطبخة الرديئة البائتة عديمة الطعم والرائحة والتي تعملها ست البيت عادة تحت ظروف «سيدي السيد»، وذلك خلافا لزوجة تريد أن تأكل لتعيش، وكاتب يريد ان يعيش ليأكل.

أكذوبة في الربع الخالي!

كلما قرأت خبراً عن توزيع منح أراض لذوي الدخل المحدود، أطلقت ضحكة عالية مدوية حتى أكاد أن أستلقي على قفاي، لدرجة أن من يسمعها بجانبي يتأكد له حينها أنني لابد وأن اصبت بلوثة هستيرية تحتاج إلى سرعة نقلي إلى أقرب طبيب نفسي، لمعالجتي من توتر الأعصاب.

حدث هذا أكثر من مرة .. وفي كل مرة لا يجد الطبيب المعالج سوى مزيد من زيادة جرعات الدواء، لتسكين الأعصاب التي تكاد تفتك بجسمي الضعيف الذي لم يعد يحتمل مثل هذه الصدمات التي - لا محالة - ستكون نهايتي على أحد هذه الأخبار المنشورة، رغم محاولاتي المستميتة على تجنب قراءتها، إلا أنها أحياناً تقتحم علي حياتي مثلها مثل القضاء المستعجل.

أما عقدتي الوحيدة مع توزيع منح أراضي ذوي الدخل المحدود، فليست جديدة وإنما هي قديمة بقدم عملي الصحفي الذي تجاوزت سنواته الطويلة ثلاثين عاماً، عندما كنت مندوباً صحفياً أفرح بالحصول على هذا الخبر أو ذاك من مسؤول البلدية وما إن يتم نشره أشعر بالسعادة، معتقداً أنني أسعدت بنشره شريحة ضعيفة في المجتمع أمنيتها الوحيدة امتلاك قطعة أرض متواضعة للبناء عليها ولو «كوخ صغير»، ينقذها من هم الإيجار ويؤويها من لهيب الشمس الحارقة وظلمة الليل الهالكة، إذا بي أكتشف أن هذه المنح إذا قدر لها ونفذت أوامرها وتم تطبيقها تكون في أمكنة ومواقع بعيدة جداً وأقرب منها - الوصول بالطائرة من جدة - إلى الربع الخالي.

ورغم محاولاتي تحاشي قراءة مثل هذه الأخبار، إلا أنها تطاردني وتقع عيناي عليها رأساً، منذ أن أبدأ في تقليب صفحات أية جريدة فاسأل نفسي : ولماذا لا تطاردني بالمثل منح الأراضي الأخرى ذات العشر نجوم، والتي يتكتمون في الإعلان عنها ويجري تطبيق مواقعها على طريقة «سُكتمْ بُكتمْ .. لا من شاف ولا من دري» .. وفي أمكنة شبيهة بأراضي الحدائق العامة ومواقف السيارات وزوائد الشوارع العامة والتي لم يعد يبقى منها شيء سوى الفتات؟

وبالمناسبة أمدك ربي - وجه وظهر - أن سخرت لي يوماً من يكفيني مذلة الحاجة في سكن يؤويني، دون أن أطلب ذلك أو أتسول على الأبواب مراجعاً في منحة أو مستجدياً في معاملة. فما أجمل أن يحتفظ الانسان بماء وجهه حتى لا يريقه موظف صغير أو كبير، تعوّد أن يتعامل مع معاملات ذوي الحاجة من محدودي الدخل بطريقة قد تخلو أحياناً من إنسانية وأخرى من وجود «واسطة» تحرك الأحجار الصلبة من مكانها فما بالُكم بالمعاملات .. وقد تجد لهؤلاء أصحاب الظروف العذر أمام قسوة الحاجة،

لكن ما هو عذر من يريقون ماء وجوههم ويتسولون وهم ليسوا في حاجة ودخولهم تضعهم في مصاف كبار الموظفين؟!!

أما حكاية لهم في كل مدينة منحة، فهذه حكاية طويلة جداً بطول مسافة الربع الخالي.

وأنا أرافق الدكتور عبدالله مناع – ما غيره – رئيس تحرير مجلة الإعلام والاتصال ومجلة «اقرأ» أيام عزها ليلة السبت الماضي، في طريقنا إلى مكة المكرمة لتعزية الدكتور عبدالرحمن العرابي.. عنّ لي أن أستفز المناع قائلاً: ما رأيك يا دكتور في أن نأكل قليلاً من اللحم؟

واستغرب الدكتور سؤالي المباغت هذا .. وسألني: هل أنت جائع؟

قلت له: نعم جائع جداً، لأنك منذ نصف ساعة وفيما نحن نسير في الطريق وبسرعة مائة كيلو متر في الساعة وأنت تتكلم عن الأدب والثقافة والصحافة.. والزيدان والعواد وعزيز ضياء .. ألا تعتقد أننا نحتاج قليلاً من الراحة لنأكل بعض اللحم؟!

وزاده سؤالي استغراباً، لكنني أسرعت لتوضيح الأمر وقلت له: إن العادة عندما يمل البعض من التحدث في الأشياء العامة ذات الأهمية فقد يحتاجون أحياناً إلى أن يكسروا حدة النقاش والحوار في تقطيع «فراوي» من «يستاهلون» التقطيع ومن لا «يستاهلونه» من الأصدقاء والمعارف.. وهي كعادة وصلت في الفترة الأخيرة إلى استحالة أن يجتمع صديقان أو زميلان دون أن يضعا طرفاً ثالثاً «من الغائبين» على المشرحة، سواء كان هذا يستحق أو لا يستحق!

وبرقت عينا الدكتور بابتسامة!!

لمست منها أنه غير مستعد لذلك، وقال ومازالت الابتسامة على محياه: أمعقول؟؟ هل أنت من يريد أن يأكل من لحم الآخرين؟

قلت سبحان الله يا دكتور وهل أنا نوعية شاذة عن الأغلبية، عندما يجتمعون وكلهم أبناء مهنة واحدة ثم يبدأون في ممارسة هذه الهواية؟! فرد ضاحكاً: ولكنهم لن يبقوا فيك غير العظم في المقابل.

وشعرت أنه يستنكر علي ذلك، ولكنني أصررت على أن لا يعيد علي الكلام في الأدب والثقافة وما يتبعهما من سلوكيات، ولابد أن يسمعني قليلاً لترطيب جو المناقشة والحوار الجاد ببعض ما تنوء به النفس البشرية أحياناً من ضعف.

وأضعت نصف ساعة أيضاً في محاولة لإقناعه بأن يتجاوز المثاليات لنقول شيئاً بعيداً عن ذلك.. لكنه طلب تأجيل المناقشة إلى ما بعد العزاء وكنا قد أوشكنا أن نصل.

في العودة أصررت على أن آخذ راحتي فيما أصررت عليه، ولكنه عندما وصلنا إلى منزله طبق باب السيارة بحدة واضحة مودعاً. وقد لاحظت أنه قد تغيرت بعض قناعاته التي لم يكن يعرفها في

صديقه، لكن الذي يغفر لي ،هو أنني أردت بهذا أن اتنفس قليلاً لأرد به على ما يقوله عني بعض من يدعون صداقتي.

هل أحسنت أم أسأت؟ هذا الأمر متروك لفطنة القارئ.

نسيت أن أقول في المقدمة أن مقولة «نريد أن نأكل لحماً»، كانت تخريجة من تخريجات أحد أبنائنا الكبار الذي كلما عنت له زيارة صديق أو زميل لشرب الشاي والقهوة عنده يتصل به ضاحكاً: «جايك يا فلان لكي نأكل قليلاً من اللحم سوياً»!

لكي لا يأخذنا «غرور» الحاضر من جمال الماضي، وجدت نفسي هكذا بدون موعد أو ترتيب منساقاً في الطريق إلى وسط البلد في مدينة جدة عروس البحر الأحمر بعد منتصف الليل، باحثاً عن متعة حسية في هذا المساء الجميل، بعد أن اختنقت بضغوطات الحياة نهاراً .. إذ يكفي أنك تتنفس الحرية والهواء الطلق والنقي من خلال فتحات زجاج سيارتك، دون أن يتطفل عليك سائق آخر ليشبعك شتماً، لمجرد أنك لم تفسح الطريق له ليمارس هوايته في الطيران.

وتتداعى الذكريات ونتذكر أن شارع الملك عبد العزيز، هذا الذي يخترق وسط البلد، كان هو الشارع الوحيد المشهور في ذلك الوقت الذي كانت تضرب به الأمثال في متعة التسوق وأمام عروض «الفاترينات» والتي كنا ننسج من خلالها قصصاً وحكايات، أثناء عودتنا لأمهاتنا القابعات في بيوتهن وهن يتحاكين بدورهن نفس الحكايات في ضحى اليوم التالي على فناجين القهوة والشاي، عندما كان لدلة القهوة معنى «ولجَمْعةِ الجارات» معنىً آخر أكثر حميمية.

كانت عيادة أسنان الدكتور عبدالله مناع – في عمارة الحفني – الدافع الاكبر لالتواء رقابنا ـ نحن معشر المغرمين بالقراءة ـ للتلصص على اللوحات الطويلة العريضة المثبتة على بلكونة العيادة، باحثين عن السر في عدم الإجابة على استفساراتنا الصامتة والساذجة: كيف يكون دكتور أسنان ويكتب في نفس الوقت في الجريدة مواضيع ليست لها علاقة بالطب ؟

وعرفنا بعد سنوات طويلة بأن الإجابة كانت بنفس درجة السذاجة، وأن هناك ارتباطاً وثيقاً بين خلع الاسنان وخلع أي مشاكل مزمنة في المجتمع.

الذي لم أجد له تفسيراً حتى الآن هو .. كيف لم يحالفني الحظ في ذلك الوقت في الحصول على جنيهات وسبائك الذهب، عندما هدمت بعض البيوت القديمة في حارة الشام والمظلوم لتنفيذ الشارع الجديد وردم بمخلفاتهما جزء من بحر الأربعين، بينما بعض أقراني حالفهم الحظ وحصلوا على سبائك الذهب والجنيهات ومن يومها لعبت «البلية» في أيديهم وكل منا سار في طريق، لكن هم فين الآن وأنا فين؟

وأحسست بالدموع في عيني، عندما قال لي رفيق الجولة ونحن نصعد طلعة حارة الشام في طريقنا إلى مدرسة الفلاح – والتي خرَّجت أجيالا – : هل تذكر هذا المبنى؟ وإذا به «فندق قريش» الذي ما زال قائماً على حاله القديم! قلت نعم أذكره جيداً عندما عسكر فيه في تلك الزمانات الجميلة فريق الاتحاد

والذي كنت أحد لاعبيه.

ولم أتمكن تلك الليلة من النوم.. وظللت أتقلب على فراشي حتى الصباح.. أتعرفون لماذا؟ لأنني لست متعوداً على نوم الفنادق المكيفة. وفي بيتنا الشعبي هناك في حي الشرفية ننام على التراب ونتغطى أحياناً بأكياس الخيش من لسعات الناموس.. بل إن الكلاب تنبح والقطط «تنونو» من حولنا حتى شروق الشمس. فنقفز من رقادنا مثل الأحصنة ونأخذها «كعابي» إلى المدرسة التي تبعد عن حينا حوالى خمسة كيلومترات أو أكثر.. فطالع الآن في وجه ولدك أو بنتك وهما يطلعان درجات الدور الأول واحكم بالله عليك على «أكيلة الآيسكريم» وأكيلة الخبز الجاف.

الأحزمة .. مربوطة «للآخر».!

لا أتذكر أن هناك قراراً صدر ونُفذ في الحال دون متابعة أو وجع دماغ، مثل قرار ربط الحزام الذي لم يستغرق تنفيذه أكثر من أسابيع قليلة .. ثم رأينا بعدها كل سائق يتوشّح الحزام داخل سيارته سعيداً بذلك ومبسوطاً، حيث اتضح أن محدودي الدخل لم تعد تهمهم مسألة ربط هذا الحزام، فهم متعودون على ربط الحزام الآخر الذي أجبرتهم عليه معيشة تزداد فيها - يوماً بعد آخر - شراهة الأسعار.

ولا شيء يجعلك تشعر بفداحة المشكلة سوى رؤيتك لسيارة صغيرة متواضعة وداخلها عدد من الأفراد رجالاً ونساء، أولاداً وبنات، يحشرون أنفسهم داخل المركبة في طريقهم إلى أعمالهم أو مدارسهم وعلى ملامحهم أثر الحاجة وضيق اليد!

ذات صباح، رأيت - في أحد شوارع مدينة جدة - التي يصفونها بـ«أم الرخاء والشدة» صاحب «وانيت» ذي غمارتين والذي كان يحشر فيه القبيلة - «بزرانه» العشرة بالعدد - داخل «الوانيت» .. خمسة منهم في الداخل والخمسة الآخرون في حوض السيارة، وكلهم متقيدون بنظام المرور وموثقون بربط الأحزمة، لدرجة أن والدهم تمكن من ربط الخمسة الذين داخل حوض سيارة «الوانيت» الخارجي بحبل يشبه حزام الأمان، حتى لا يتعرض أحد منهم أثناء السير لمشكلة من نوع الوقوع من صندوق السيارة.

وأعرف أن الرجل كان مجبرا على ذلك .. ولو لم يكن كذلك لما أقدم على هذه الخطوة.. ولكن قاتل الله الحاجة وقاتل الفقر، الذي قال عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه «لو كان الفقر رجلاً لقتلته».

ثم ماذا يفعل رجل مثل هذا - وهو بالتأكيد - من محدودي الدخل - أمام أسعار سلع غذائية ومعيشية تتزايد وتتراقص يومياً مثل بندول الساعة؟ وجهات الرقابة تتفرج ولا هم لها غير منع الصحفيين من دخول إداراتها، لكي لا يكتشفوا موائد الإفطار الصباحية لبعض الموظفين، من فول وتميز وفلافل تفوح رائحتها من خارج مباني بعض الإدارات الحكومية.

إن منظر سيارات «الوانيت» وفي داخل أحواضها أطفال، يمنحني الإحساس دائماً بأن البطون الخاوية يمكن أن تطيح بتلك الأجسام الناحلة من هبة ريح.

جرب أن تجلس في مجلس يشارك فيه مثقفون ومدّعو ثقافة، وفئة من المحسوبين على الأدب ومن لف لفهم، واستمع اليهم يتناقشون في قضية ثقافية أو اجتماعية أو سياسية، ستجد المجلس وقد تحول إلى ما يشبه حلقة المصارعة ذات الخصوصية العربية التي ينفرد بها بنو يعرب وحدهم وأبناء جلدتنا بشكل خاص.

يبدأ الصراخ يتعالى، وقد يتحول بعد قليل إلى شيء آخر أكبر من الصراخ، إلى كلام خارج عن الأدب وفيه شيء من «السوقية» التي تعارف عليها الناس الأسوياء، بأنها تخدش الحياء وتوصل إلى قطيعة لا تنتهي، مهما مر عليها من الزمن.

ثم يتحول الأمر إلى دسائس واستعداء وكلام من وراء الظهور، حتى أنك لا تصدق أن من كانوا بالأمس أصدقاء وزملاء، أصبحوا اليوم أعداء، يكيلون لبعضهم البعض الشتائم والمكائد بطريقة يندى لها جبين السامع. ولا يصدق ما يسمعه لو لم يكن حقيقة ماثلة لا تحتاج إلى شهود ولا مزكين، بعد أن انتقلت المعركة إلى صفحات الصحف وعلى طريقة: اللي ما شاف يتفرج.

وتصوروا شكل الخلاف، عندما يكون بين اثنين من الأرحام أو الأقرباء. فقد يكون من نتائجه السيئة – مع الأسف الشديد – إقحام العوائل في هذا الخصام الذي قد يصل أحياناً إلى الطلاق. أو مثل: «والله لو رحتيله أو اتصلتِ فيه أو اتصل بك لأرميك عند أهلك وبعدها خلي أخوك هذا ينفعك».

والتفتوا حواليكم، سترون من هذه النماذج ما لا عين رأت ولا أذن سمعت. والحاضر يعلم الغائب بأن ما هو قادم من تفكك أسري بسبب هذه الخلافات ومثيلاتها لهو أكبر وأفظع .. وربنا يستر!

لا أعتقد أن هناك شيئاً يمكن أن يسيء إلى الأعمال الجيدة الكبيرة، سوى بعض الإجراءات الروتينية التي قد تستجد بين الحين والآخر.

وكلكم تذكرون أن أجمل القرارات التي صدرت – من قبل إدارة الجوازات – في الخمس أو الست سنوات الماضية، هي القرارات التي تخص تصحيح وضع بعض العمالة، بحيث أصبح تسهيل اجراءات نقل الكفالة يتم دون «واسطة» ولا لف ولا دوران. وكل ما في الأمر التقدم لدفع رسوم نقل الكفالة والخروج من بوابة الجوازات سعيداً بعدم اضطرارك إلى الوقوف أمام موظف كان في السابق يتمحك بعدم موافقة النظام ويشيح عنك بوجه، إذا لم تتعرف على «سر» مفاتيح «ابتساماته».

لكن في الفترة القريبة الماضية، استجدت «لغة الممنوع» على شرائح معينة من العمالة وهي العمالة التي كفالتها على أفراد، فأصبح ممنوعا نقل كفالتها على مؤسسات أو شركات. وحيث إن أسباب المنع ما زالت غامضة على الكثيرين، فهل يتكرم مدير عام الجوازات ويقول للشريحة المحتاجة إلى نقل كفالتها على مؤسسات وشركات: لماذا هذا المنع، خاصة إذا عرف سعادته أن كل ممنوع مرغوب ويمكن التحايل بشتى الطرق وابتزاز المخلصين لهؤلاء المحتاجين، لكن «الشقَى» و «البقَى» على الذي ليس لديه «واسطة»، ثم ألا يكون سعادته عطوفاً ويعيد النظر في قرار المنع عندما يجيء عن طريقه؟ هناك شريحة كبيرة من العمالة التي ولدت على تراب هذه الأرض، وما زالت مضمومة في إقامة ولي أمرها وترغب في نقل كفالتها بإقامة مستقلة على إحدى المؤسسات أو الشركات لتعمل وتعيش، لكنها عندما تراجع إدارة الجوازات تصطدم بكلمة ممنوع نقل الكفالة من أفراد إلى مؤسسات.

فهل هناك أسباب جوهرية تبرر هذا المنع ؟ وهي حتى وإن وجدت ، فلن تكون متساوية مع الأضرار الناجمة عن وجود هذه العمالة العاطلة عن العمل والهائمة في الشوارع، بحجة منع نقلها إلى مؤسسات أو شركات، لا سيما أن ولي أمرها يكاد يكون سعودياً ، وأكثرهم لهم سنوات طويلة في هذا البلد. فلا أقل من أن نكرمهم في نقل كفالة ابنهم الشاب إلى أية شركة أو مؤسسة تحتاج إليه. بدل زيادة تعدد العاطلين من السعوديين وغير السعوديين، خاصة وأن اغلب المهن التي سيشتغل فيها هؤلاء يمتنع عن شغلها السعوديون. وبدلاً من الاستقدام، لماذا لا تكون الأولوية لهؤلاء الذين ولدوا وتربوا مع أسرهم في هذا البلد الوفي لمن أسهم في بنائه؟

الأمر شرحه يطول يا معالي الوزير!

إذا اضطرتك الظروف في بلدنا إلى السفر، فليس لديك خيار آخر غير الخطوط السعودية أو النقل الجماعي ، وكلتا هاتين الوسيلتين لها من السلبيات والمثالب ما يعجز الراكب عن حصرهما، خاصة إذا كان هذا الراكب من الذين تضطرهم ظروفهم إلى السفر الدائم، عن طريق إحدى هاتين الوسيلتين.

وفي المواسم تكثر الأخطاء. وما يعنيني في هذا الشأن، هو النقل الجماعي الذي يسافر به من لا يستطيع تحمل تذكرة السعودية من ذوي الدخل المحدود والذين تضطرهم ظروفهم إلى التنقل بين بعض المدن داخل المملكة.

ونظرة سريعة إلى «محطة النقل الجماعي» ، وهي المحطة الوحيدة في مدينة جدة ، والموجودة على شارع الكورنيش بالقرب من سوق السمك، سيصدمك منظرها ووضعها وسوء حالتها، أما إذا هممت بالوقوف في الطابور لتقطع تذكرة فعليك أن تنجم أولاً إلى أي الشبابيك تتجه .. وإذا اتجهت إلى أحد الشبابيك فستجد من يرفع عقيرته عالياً من أشباه الموظفين قائلا: «يا الأخو أنت غشيم في ركوب النقل الجماعي»، فتضطر إلى أن تنتقل إلى شباك آخر، ولكن عندما تصل إلى موظف الشباك ويعرف المدينة التي تقصد السفر إليها، يرمقك بابتسامة ساخرة وهو يقول: الأوتوبيس تحرك وعليك الوقوف في الشباك الآخر لقطع تذكرة .. ثم تظل تدور وتدور بين الشبابيك حتى يسخر لك الله واحداً من الركاب، له مع النقل الجماعي الداخلي حكايات وتجارب مؤلمة، فيضحك ويدلك على الشباك الذي تستطيع بعد جهد وتعب أن تقطع تذكرتك من خلاله .. لكن بعد أن تكون قد وصلت إلى حالة من عدم التوازن في ما رأيته وشاهدته داخل المحطة، من فوضى، وعدم انتظام، وعدم التزام في مواعيد قيام الرحلة وأيضاً السلبية في معاملة الراكب، أما إذا كان الراكب امرأة، فالأمر شرحه يطول جداً.

وحتى لايجرح صيامك أحد موظفي المحطة التي تعيش في فوضى وبدائية محطات البلدان المتخلفة، أتمنى على معالي الدكتور ناصر السلوم وزير المواصلات ورئيس مجلس إدارة هذه الشركة أن يخطف رجله يوماً خلال هذا الشهر الكريم، ليرى بنفسه ما هو عليه وضع هذه المحطة الوحيدة في مدينة جدة ، وكيف يجري العمل داخلها .. ولو فعل فسيعود مصدوماً من هناك.

التاكسي الطائر بالأقساط !!

منذ أن استمعت واستمتعت بالمنولوج الشهير «يا تاكسي يا طاير» عن ذلك التاكسي الطائر الذي في داخله الحبيبة ، وأنا أكن لتلك الوسيلة كل الاحترام والتقدير لدرجة أن أول شيء فعلته في بداية شبابي هو شراء سيارة تاكسي والعمل عليها بعد انتهائي من دوام عملي النهائي، تحسيناً لدخلي، ثم محاولة توصيل الحبيبة مع أهلها، كلما أرادوا مشواراً ضرورياً هنا أو هناك .. ثم فعلت ذلك عندما طُردت من الصحافة أكثر من مرة!

وكان أبعد مشوار في التاكسي في تلك الأيام لا تزيد تسعيرته على الريالين، وفي كثير من الأحيان يطير هذان الريالان، إذا ما صادفني زبون «غلس» أو صعب بعد منتصف الليل.

ثم نسيت الحكاية وكل هذه التفاصيل ولم يذكرني بها سوى أحد أقاربي، عندما طلب مني كفالة غرم وأداء، ليتقدم بها لبنك التسليف لامتلاك سيارة تاكسي للعمل عليها، كما فعل أصحابه قبله وقدموا أوراقهم للحصول على سيارة تاكسي من المعلن عنها.

قلت له: ولكنك موظف وراتبك جيد ولا تحتاج لمثل هذا العمل الشاق الذي هيئتك لا تدل على أنك ستمارسه بنفس حماس الشاب المحتاج لعمل والذي لم يكن عنده عمل آخر غيره؟

قال: حاسدني ياخوي؟! على طريقة إعلان من يربح المليون.

وأكدت له أنني لم أقصد ذلك .. وهنا قال: إذا لم يكن الأمر كذلك فلا أقل من موافقتك على كفالتي، فقد يكون لي في امتلاك التاكسي مآرب أخرى - قالها مبتسماً - وحين لم أجد عذراً أتهرب به منه سوى أن أقول له هات أوراق الكفالة من بنك التسليف لأطلع عليها، فقد تكون الشروط لا تنطبق عليك ولا عليّ ككفيل!

وكانت إجابته المختصرة التي صدمني بها حاضرة فعلاً عندما قال متسائلاً: وهل تعتقد أن عمائر الإسكان العاجل الذي ظلت مغلقة لعشرات السنين، قد تم فتح باب إسكانها تمليكاً للمحتاجين؟ ألا تعلم «يا فالح»، أن معظمها بيعت من الباطن وما زالت السمسرة قائمة ببيعها من واحد إلى آخر؟ فهل ستصدق أن مشروع امتلاك التاكسي من بنك التسليف لن يتم على طريقة تمليك وشراء شقق مشروع الإسكان - الآجل - في جدة وغيرها من مدن المملكة الكبيرة كالرياض والدمام؟

وقتها أدركت، كم كنت ساذجا حين اعتذرت لقريبي، باستبعادي أن يمتلك التاكسي، سواء كفلته أو لم أكفله.. كان مستحقاً أو لم يكن.

وهناك نماذج أخرى كثيرة وعديدة سابقة من التلاعب والضحك على الذقون .. وهي نماذج لا تعد ولا تحصى.

التسول بالكلمة!!

السقوط المريع أن يتسول الكاتب أو الصحفي بقلمه عن طريق الكلمة المكتوبة.

وماذا يمكن أن أكتب أو أرد به على ذلك الكاتب الشهير بـ«المتسول الأول»، الذي يلاحقني بكتاباته شبه اليومية والذي تعوّد أن يقف على أبواب مكاتب ومنازل الوجهاء والأكابر بالساعات والأيام من أجل الحصول على عطاياهم في صيغة شيكات أو رزم من النقد، مدعيا في تسولاته إما أن سيارته قديمة ويريد تجديدها ، أو أن عليه ديناً لم يستطع تسديده، غير قانع براتبه الكبير والذي يفوق راتب ثلاثة صحفيين متفرغين .. وهذا إضافة إلى مكافآت كتاباته في أكثر من وسيلة والتي لا تخرج عن أحد أمرين لا ثالث لهما، إما شتم لدرجة الفجور أو مدح مقيت يمارس من خلاله تسولا على أعلى المستويات.

وقد فكرت .. هل أرد عليه أم أسكت ؟ وألجم فمي حجراً، لأن الضرب في الميت حرام – كما يقولون – ولابد إذا لزم الأمر مستقبلاً من التعامل مع هذه «الفئة» بطريقة أخرى غير الرد الكتابي والذي قيل أن بعض الزملاء استعملوه فنجح معهم.

لكن الذي يحز في النفس أن هذا «المتسول» استمرأ التسول بالكلمة .. والذي لا يدفع له، يفتح عليه النار من كل الجبهات ، وكأنه «حطيئة» زمانه الذي لم يسلم منه أحد.

والطريف، أن هذا المتسول دائما ما يتشدق مفتخرا في المجالس والمقاهي التي يتطفل على مرتاديها أن هذه هي طريقته في الحياة ، وأنه لا يرضى عنها بديلاً .. بل إنه يشجع بعض جلسائه على ممارستها، لكنهم يعتبرون أن ما يقوله نوع من أنواع التفكه والمؤانسة، مادامت الظروف أتت به إلى مجلسهم.

وأعتقد جازماً أن من يقبل أن يمد يده مرة واحدة متسولاً من الصعوبة أن يكفها مرة أخرى فما بالكم بمن ظل يمدها نصف قرن من الزمان، منذ أن بدأ يعي قيمة الدرهم والريال.

والفرق الوحيد بينه وبين الذين يتسولون عند إشارات المرور.. أن بعضهم قد تجد لهم العذر لحاجته .. أما الطامة الكبرى فهي الذي يتسول بالكلمة وثيابه نظيفة وغترته منشأة وسيارته شبه فارهة ثم يدعي «كذباً» أنه ضعيف ومسكين، لاستدرار عطف «الكبار» الذين مهما أجزلوا العطاء تلو العطاء، إلا أنه لا يشبع.

وقد حصل في النهاية على لقب «المتسول الأول في شارع الصحافة» ..

والله «خوش» صحافة.

حقيقة أشعر عن مدى تقصيري، لأنني لم أوفه حقه، وهو صاحب نخوة وعزة وأنفة وخصال أخرى كريمة وحميدة كثيرة ومتعددة يندر وجودها في هذا الزمن الأغبر الذي تتحدد فيه قيمتك ومكانتك بين شرائح، المجتمع بما تملك من دراهم ودنانير، إلا فيما ندر.

وفي كل المرات التي كتبت فيها عنه، كانت سيرته ومزاياه الحسنة تسبقه عابرة الصحاري والقفار والقارات لتصل إلينا هنا على شاطيء البحر، لتقول لنا ماذا يعني الكرم والنخوة والرجولة وحب الخير، حتى أنه لم ينسف مشلحة على كتفه قط، إلا لفقير طالب حاجة أو مكروب تعقدت معاملته في مكتب بيروقراطي كبير لا يشعر بمسؤوليته أمام ضرورة تسيير مصالح المراجعين.

إذا قلت عنه «الكريم» فلابد – دون ذكر اسمه – أن تعرف أنه ذلك الطود الشامخ الذي ولد حيث ولد «حاتم الطائي» وحفيت قدماه مشياً على تلك الجبال والصخور السمر المسماة بجبال أجا.

يرتعد ويفز من مكانه غاضباً ولا ينام الليل بطوله، عندما يشعر بأن هناك ظلماً وقع على شخص ليس له لا حول ولا قوة في الانتصاف من خصمه، ثم لا يتردد في أن يكون محامياً له دون أن يطلب منه ذلك.

وعندما تصل إلى مسامعه بذرة خير زرعت في أرض ذي حاجة مسكين. فهو لا يتردد في الكتابة لمن زرعها وسقاها واعتنى بها، ليشكره على ما فعل حتى لو لم تربطه به معرفة.

هذا هو الرجل الكبير، الكريم والشهم الوفي، فهد العريفي الذي سبقته إلينا سجاياه الكثيرة وازددنا حباً وتقديراً واحتراماً له، عندما كرمته إثنينية عبد المقصود خوجة الأسبوع الماضي، لتؤكد من جديد أن ما سمعناه عنه من مزايا وسجايا شيء لا يذكر أمام تفاصيل صغيرة وكبيرة ترتفع به إلى حيث مصاف النبلاء، ومثله مثل كل «الحائليين» الكرماء الذين يخفون مزاياهم وشهامتهم تحت سماء التواضع الجحم، حتى أنني تأكدت حينها أن من يجلس بجواري في السيارة – وأنا أوصله إلى حيث يقيم – هو ذاته حاتم الطائي الآخر – فهد العريفي – في زمني وزمن أقراني، ممن يبحثون بإبرة عن كرم ووفاء وشهامة وسط هذا الكم من ركام الجحود والسفه والغطرسة والرياء.

هذا الرجل – الحائلي النبيل – المهموم طوال مسيرة حياته بالشأن العام، هو نفسه عضو جمعية مكافحة أضرار «الكتاب الأكاديميين» الذين أخذوا «يتفشون» في الصحف على حساب عملهم الأساسي في قاعات الدرس والمحاضرات.

منذ اقتحمت حياتنا كلمات مثل: الحج السوبر – وحج خمس نجوم – ونحن نعاني من ارتباط هذه المعاني والكلمات بكل الطرق الأخرى الملتوية وغير الكريمة، التي يتعرض لها بعض حجاج الداخل والخارج من عمليات نصب واحتيال وتزوير لها أول وليس لها آخر، والتي قد تصل أحياناً إلى عدم أداء الحاج فريضة الحج أو العمرة، عندما يكتشف فجأة أن وكيل «الحج السوبر والعمرة خمس نجوم» فص ملح وذاب، حتى قبل أن يصل الحاج المسكين أو المعتمر الولهان الذي دفع دم قلبه في سبيل أداء الركن الخامس إلى الديار المقدسة وتطأ أقدامه أحد مطارات المملكة.

ولست أدري، هل كلمات من نوع السوبر وخمس نجوم هي مجرد سنارة يرمي بها بعض وكلاء الحجاج لاصطياد الحجاج ذوي المقدرة المالية على الدفع مقابل «رفاهية» معينة، أم أن هذه كلمات أصبحت متداولة يقع تحت طائلها الحاج القادر وغير القادر، على طريقة من يقع في السنارة لابد وأن يموت .. أو على الأقل ينخرب بيته.

إن مثل هذه الممارسات والأفعال المشينة، قد جلبت للبلد سمعة سيئة ينالها العامة والخاصة، لدرجة أنه أصبح حتى المواطن العادي – الذي ليس له في العير ولا في النفير – أصابه شيء من وصمة العار هذه التي تنتهي بسمعة سيئة دون أن يكون قادراً على الدفاع عن نفسه، عندما يستمع لمن وقع في مثل هذا النوع من أنواع النصب والاحتيال وهو يتحدث عما حدث له ، ثم يكاد أن يقع من طوله وأعصابه مشدودة ووجهه محتقن من شدة « النرفزة » ،والغضب، والقهر وقد ضاعت عليه فريضة حجه ومعها أمواله التي انتهت إلى بطون من لا يخافون الله، من فئة النصابين واللصوص والمرتزقة.

فهل في إمكان الجهات المسؤولة في حج العام القادم تطويق هذه القضية المهمة الكبيرة والشائكة والتي جعلت المواطن العادي «مكسوفا» من نفسه، كلما قابل مصادفة حاجاً منصوباً عليه، سواء كان ذلك في الداخل أو الخارج، بينما هؤلاء النصابون والمزورون لا يعنيهم الأمر في شيء؟

وإذا لم يضرب بيد من حديد على من ارتضوا أن تتمرغ سمعة المواطن الشريف والبلد في التراب، ولا نقول «ولا تزر وازرة وزر أخرى» فالوزر هنا يشمل الجميع وتحديداً سمعة المواطن والبلد معاً.

بعض الناس - والقراء بالأصح - يلومونك أحياناً على طريقة الطرح والكتابة الحادة التي تكتب بها، حتى لو كان الموضوع مجرد مداعبة أو معاتبة لزملائك في جريدة «اليوم» ويقترحون عليك قائلين: لا تكتب وأنت زعلان أو متوتر .. وعليك قبل الكتابة احتساء كأس من الماء الشديد البرودة، لعله يخفف من توتر أعصابك ويدفعك للكتابة هادئاً.

وقس كتابتك على وضعك النفسي أولاً وراحة بالك.. والظروف المحيطة التي تجعل الكتابة عندك نوعاً من أنواع الرجل الهادئ القابل للحكم على موضوعاته بالسلب أو بالإيجاب.

وقد فكرت في كل هذا كثيراً وحاولت أكثر، لكن استحال علي أن اكون في لحظة هدوء .. والمرة الوحيدة في العمر التي قبضت على لحظة الهدوء هذه، جاء الموضوع بارداً وأكثر برودة حتى من قالب الثلج .. ولم انشره.

هل معقول أن ادعي الهدوء وكل ما حولي يموج ساخناً كالبركان المشتعل؟

كيف يكون الهدوء وياسر عرفات هناك في كامب ديفيد الثانية يمطوح به الأمريكان والاسرائيليون، للتوقيع على قرارات تنازلية جديدة تحت ضغط وهيمنة «سي السيد أمريكا»!

ثم أين الهدوء وراحة البال وأنت لا تعرف حتى الآن رأسك من قدميك في موضوع طلبة حصلوا على نسبة عالية جداً في الثانوية العامة ولم يتمكنوا من دخول الجامعة، بينما من نسبتهم اقل بل متدنية دخلوا بـ«واسطة»، تلك الورقة الصغيرة التي تفتح لها كل الأبواب المغلقة حتى بالمتاريس.؟

وكيف أكتب بهذا الهدوء وفي هذه اللحظة بالذات الكهرباء مقطوعة عن حينا وأكتب على ضوء الشموع والماء كذلك ؟ وإذا بحثت عن شراء وايت ماء فأمامك خرط القتاد ، ولابد من دفع أجرة لوايت الماء في السوق السوداء والذي لايقل سعره عن مائتي ريال.؟

ولا تسأل عن سوء شوارع حَيِّنا وحفرياته والمطبات التي تجعل من سكان الحي زبائن دائمين، يترددون بسياراتهم على ورش الميكانيكا، لدرجة أنني فكرت جدياً أن أبيع سكني الوحيد الذي أقمته بشق الأنفس وأقبض قيمته، ثم أتجه للنصب على أحد أصدقائي الاثرياء - كما يفعل بعض الزملاء - لأشتري منزلاً مجاوراً للحي الذي يسكنه سعادة أمين مدينة جدة الدكتور نزيه نصيف، لتنتهي مشكلتي مع الكهرباء والماء وطفح المجاري وسلامة الشوارع . وعندها يمكن أن أكتب لكم بهدوء وعلى طريقة من جاور السعيد يسعد وليس هناك مجال للتوتر!

الدبلوماسي الكبير .. الإعلامي الأكبر

هو إعلامي كبير جداً، عندما كانت الإذاعة إذاعة شاملة .. ووقتها كان الأستاذ عباس فائق غزاوي أحد أعمدتها الإعلامية. ولا يمكن لجيل الإذاعة في الستينيات والسبعينيات أن ينسى لهذا الإعلامي الكبير دوره وفضله في تبني جيل من المذيعين والإعلاميين، الذين كانت تصدح أصواتهم الإذاعية الجميلة حتى وقت قريب.

حتى أن بعض الجيل الحاضر من المذيعين الذي لم يلتحق بالإذاعة في عهد عباس فائق غزاوي، يتحسر كثيراً على أنه لم يدرك إذاعياً في ذلك الزمن الجميل والرائع، عندما كانت الإذاعة تضم فطاحلة الإذاعيين، الذين عندما يمسكون بالميكروفون ويديرون حواراً أو ينقلون صورة صوتية، كأنهم ينقلون كل عشقهم وهيامهم وأنفاسهم المتلاحقة والمعبرة للمستمع الذي يبادلهم نفس المشاعر خصوصا حينما يتأكد أن هذا المذيع ليس مذيعاً فقط ، بل أستاذا ومدرسة إذا لم يكن جامعة متنقلة تعلم المستمع كل شيء جميل وراق، لدرجة أن وصل الهيام بالمستمع إلى أن يحتضن جهاز الراديو بجواره كما يحتضن حبيبته!

جيل تربى على تذوق الكلمة الحلوة والعبارة الراقية والحوار المفيد الذي كان ينشره ويبثه عباس فائق غزاوي وأمثاله من القيادات الإعلامية التي لن تتكرر، من الذين لو جاءوا في زمن انتشار هذه الفضائيات لكان عطاؤهم أكبر وأكثر، ولما وصلنا إلى هذا النوع من الابتذال والتردي والتأتأة والرخص في الكلمة والمعنى، الذي يعبر عن مستوى مقدميها.

كنت حينها أتشوق تلهفاً على أن أرى والتقي بهذا الإعلامي الكبير يوماً في جدة، عندما كان هو الإذاعة والإذاعة هو، وإذا بالأقدار لا تسمح لي بذلك إلا بعد أن انتقل إلى العمل الدبلوماسي في وزارة الخارجية وفي لندن، عندما جاءها قبل أكثر من عشرين عاماً من خلال دبلوماسية سريعة لتطويق حادثة فيلم «موت أميرة».

ولم أره بعد كل هذه السنوات الطويلة إلا مساء الاثنين الماضي في حفل تكريمه في إثنينية عبدالمقصود خوجة، بعد أن ترجل عن العمل الدبلوماسي وأصبح طليقاً كالطير المغرد في الفضاء وحوله أصدقاؤه الذين هم دوما في شوق إليه.

لكنني وأنا أسعى إلى أمسية تكريمه تلك الليلة، لم أدر أن السنوات الخمس عشرة في الدبلوماسية قد حولته إلى هذه الدرجة من إذاعي كبير ومفوه دبلوماسي يقول كلماته بالمسطرة والقلم، ثم تأتي

ردوده على الحضور بالقطارة وكأنه في مكتبه في السفارة، حتى أنني لم أمنع نفسي من الاحتجاج على صاحب الاثنينية، عندما أرسلت له احتجاجي عن طريق ورقة صغيرة مكتوبة تلاها فيما بعد أبو محمد سعيد على الحضور ملخصها يقول: لقد جئت لأستمع لعباس فائق غزاوي الإعلامي الكبير وليس عباس فائق غزاوي الدبلوماسي، الذي يبدو أن سنوات الدبلوماسية الطويلة قد حالت دون أن نستمع ونستمتع بذكرياته الإذاعية والإعلامية الثرية والجميلة.

هو موضوع مراجعة لا أكثر ولا أقل، أجلته عدة أشهر بحثا عن «واسطة» تكفيني مؤونة أخذ الحبة المسكنة التي تضبط أعصابي، كلما أردت أن أراجع في معاملة تخصني أو تخص غيري في أية إدارة لها ارتباط بالجمهور.

ولم يكن ذلك ممكناً، حتى بعد أن وجدت «الواسطة» أخيراً واستعد لمرافقتي، لكنه قال يحثني: لا أنصحك بترك الحبة وإنما يجب أخذها، لأنه لابد من وجود العكننة حتى لو وجدنا من يساعدنا في إنهاء إجراءات المعاملة بسرعة.

في يوم الإثنين الماضي صباحاً اتفقنا .. وقبل أن يمر علي في مكتبي طلبت من الساعي كأس ماء بارد وقلت بسم الله وبلعت «الحبة» واستأذنت من رئيسي وسألني متى ستعود؟ قلت له: أنا في مشوار مراجعة إلى محكمة الضمان والأنكحة ورغم وجود «الواسطة» فلا أعرف الظروف ولا متى سأعود!!

وكان واسطتي يعرف من خلال خبرته الطويلة الوقت المناسب للمراجعة فحدده بعد الساعة الحادية عشرة والنصف .. وما إن دخلنا حتى وجدنا البعض يستعدون للصلاة، وفعلاً بعد قليل كانت كل المكاتب خالية من موظفيها، بعد أن تأكدنا من فرش سجاجيد الصلاة.

وفي الساعة الثانية عشرة والنصف وخمس دقائق، أقفلت الأبواب حتى الخارجية للمحكمة. وذهبنا لنصلي، لكن الصلاة لم تقم إلا بعد أن قامت الصلاة في المساجد المجاورة بربع ساعة، أي الساعة الواحدة وخمس دقائق .. وبعد أن انتهت الصلاة وبدأنا في إجراءات المعاملة – ويبدو أن واسطتي «جامدة» ، استطعنا أن نتجاوز أسبوع المراجعة في ساعتين، لكن رأينا خلالها ما لم نره في أية دائرة أخرى من «مطوحة» للمراجع واستخفاف به، وخاصة النساء من المراجعات اللاتي يحتجن إلى نظرة خاصة، بدلاً من «روحي وتعالي بكرة وبعده وبعد أسبوع».

ولو كان بعض الموظفين مخلصين لما احتجت إلى أي واسطة ولا لأي حبة مسكنة، لأنها لا تحتاج إلا إلى ورقة تكتب من سطرين فقط وشاهدين وتوقيع القاضي وختمه وربك سامع الدعاء.

لكن لو لم تكن الواسطة لأمضيت أسبوعاً في المراجعة على الأقل .. وهذا ما أكدة بعض من «الراسخين في علم التعقيد والروتين»!

بسخرية!!

– قال: مبروك.. تكتب في «اليوم»؟!

– وماذا في ذلك ؟!

– يعني كاتب كبير مثل كل الكتاب الذين يكتبون في أكثر من جريدة وتتصدر «تصاويرهم» مقالاتهم؟!

– وماذا فيها يعني؟!!

– أبداً ولا حاجة .. بس حبينا نعرف أنك اصبحت من الكتاب إياهم الذين لا يشق لهم غبار.

وانسحب من أمامي ولم يترك لي الفرصة، لأشرح له الأمر الجلل الذي أوقعني فيه هذا الذي يتصدر اسمه ترويسة هذه الجريدة.

وكدت أن أنسحب، لو لم «يسبق السيف العذل»، وأبعث بحلقتين من هذه الزاوية التي أتمنى أن لا يكون رأي القارئ فيها كرأي زميلي الصحفي هذا، الذي أعرف طريقة كسب رضاه، التي لن تزيد على دعوته على عشوة سمك في إحدى الاستراحات على طريق المدينة، أو نشر «لقطة صحفية» – خبر يعني – إيجابي عن مناقبه مع صورته وينتهي الأمر بتغيير وجهة نظره فوراً، لكن الذي يهمنا عادة هو رأي القارئ الذي لا يمكن «رشوته» لا بـ«تباسي» الرز ولا بالأخبار الصحفية، وإنما بما يحمله الكاتب من أفكار ورؤى تضيف إلى القارئ جديداً .. أو على الأقل أسلوباً كتابياً يشرح الخاطر ولا يسد النفس أو يربك الأمعاء، كعادتنا عندما نفتقر لأدنى فكرة نقولها.

والأفكار في العادة على «قفى من يشيل»، لكنك تحتاج إلى ذلك الكاتب الماهر الذي يستطيع تحويلها إلى كلمات رائعة يطالعها القارئ، فيشعر بعد قراءتها بأن بينه وبين الكاتب ارتباطاً وثيقاً قد يستمر وقد ينقطع، لما للكاتب من مهارة في الحفاظ عليه .. وهذا وربي صعب المنال، إلا إذا كنت شخصاً بقدرة هذا – العلي – محمد –المعتكف في بيروت، وذلك الغذامي – عبدالله – المتفرغ لأبحاثه، والفرق بين الاثنين أنك لا تستطيع أن تمرق من بينهما مهما حاولت لأن الإبداع له لغته .. على حد تعبير عمنا صاحب «التيارات الادبية» الأستاذ الكبير «عبدالله عبدالجبار»، الزاهد في كل شيء إلا مريديه الذين يترددون على صومعته، طمعا في الاستزادة من إبداعاته ومن تواضعه الجم في عصر كثر فيه الطواويس.

هنا، أعتقد أن الزميل يعني بالكتاب الكبار هؤلاء الذين تصغر أمامهم كل أدواتنا الكتابية.

ومن غير أن نجتهد في معرفة اسمها كاملا .. إنها تلك الكبيرة منصباً والمثمرة كفاءة ومقاماً الدكتورة ثريا أحمد عبيد.

والشجرة المثمرة عادة – عندما يعجز أن يطال ثمارها الآخرون – لا يجدون أمامهم سوى رمي ثمارها بالحجارة وهذه حيلة العاجزين.

والقصة من أولها تبدأ على النحو التالي:

بالتأكيد أنا ما زلت متخلفاً جداً في ممارسة التعامل مع ذلك الجهاز السحري الذي اسمه «الكمبيوتر» والذي من خلاله يمكن الوصول الى شبكة الإنترنت، لكن ما يصلني من أخبار ومعلومات عن ما ينشر من خلال شبكة الإنترنت يشيب له الولدان.

قلت: ولابد أن أرى ذلك بنفسي واستدعيت أحد الأصدقاء .. ولم يكد الصديق يفتح لي شاشة الإنترنت على أحد المواقع، حتى طلبت منه مرة أخرى الضغط على زر الجهاز لقفله ثم استدرت عليه قائلاً: هو أنا ناقصك! ما تفتح لي إلا على هذا الموقع بالذات؟

قال ضاحكاً: هذه عملية جذب وشد انتباه نمارسها مع بعض اصدقائنا، حتى نعرف من أي نوعية هم لنتعامل معهم على هذا الأساس. وبعد قليل فتح لي موقعاً آخر كان لا يقل جرأة عن الموقع الأول، إلا أنه يمكن التعامل معه لمن تخطى عمره سن المراهقة.

قلت: يا أخي يقولون أن هناك موقعاً يسمى «الساحة»، أريد أن أراه للتأكد مما يقولون بأن هناك حوارات ساخنة تجرى بين المتحاورين، تصل أحيانا إلى حد التعامل معها بطريقة الحوار الحضاري وإن اختلفت مع قناعتك ووجهة نظرك.

ولم يكد الصديق يوصلني إلى موقع الساحة حتى بدأت أقرأ شيئاً جديداً ومختلفاً كلياً عما أقرأه في الصحف وأشاهده في القنوات وأسمعه من خلال المذياع . وصحيح أنني تسمرت أمام هذا الموقع، عندما قرأت فيه حوارات تتعدى أحياناً لغة العقل والمنطق وأرى انها خيالية كثيراً .. لكنني وجدت أن ذلك أمر طبيعي لمجتمع عربي لم يتعود على لغة الحوار والاتفاق والاختلاف .. وما هذا الذي رأيته إلا بداية لتعلم اصول الديمقراطية التي سبقنا بها الغرب بعشرات السنين .. وها نحن بدأنا نحبو ونتعلم طريقة المشي إلى أن نقف على أرجلنا يوماً .. ويجب أن لا نضيق ذرعاً بهذه الحوارات الإنترنتية، حيث سينضج أسلوب الحوار في وقت غير بعيد.

شيء واحد أفسد علي متعتي، وهو ما قرأته من هجوم يخرج عن كل الأعراف على الدكتورة العالمة ثريا عبيد المدير التنفيذي لصندوق الأمم المتحدة للأنشطة السكانية، وما تعرضت له من نقد يخرج عن لغة الأدب الإسلامي الذي يأمرنا بالنصح والتوجيه بأيسر القول .. لكنني في النهاية وجدت لمهاجميها العذر في أن الكبار وحدهم هم الذين يتعرضون دوماً للهجوم، وذلك طبقا للمثل الإنجليزي المعروف «الشجر المثمر هو الذي يرمى بالحجارة» .

أما الكبار الذين أقصدهم فهم من نوعية هذه «الثريا» التي شرفت – وبكل المقاييس – البلد الذي تنتمي إليه.

وكفى أيها الواقفون دوماً على سلالم الحضارة بالعرض.

هل كلمة الألفية مشتقة من الملف العلاقي؟! إذا كان ذلك صحيحاً سيكون الموظف الذي يتلذذ في تعذيب المراجعين منتشياً ومنشياً ورافعا رجلا على رجل – على الآخر – محقا في ذلك.

قد ندخل الألفية قريباً، عندما نستعيد ما اتخذناه من خطوات لمجاراة النقلة الحضارية الكبيرة، التي تتزامن مع الأسواق الحرة وتعديل وتغيير بعض الأنظمة والقوانين الروتينية التي لا تتوافق مع الألفية .. وعندها سنرى عجباً.

معاملات الناس ما زالت تتمحور أمام موظف متكلس عفى عليه الزمن، يقابلك يومياً بوجه عبوس ويقول تعال بكرة وبعده.

حقوقك التي اقترضها منك – من وثقت فيه يوماً – لا تستطيع استردادها، رغم وقوفك على أبواب الحقوق المدنية يومياً مع طلعة كل شمس.

وإذا أردت شراء سيارة بالتقسيط من أي شركة .. فلابد ان تخضع لسين وجيم وكفيل غارم ومعروف وتأتي أيضاً بفاتورة الكهرباء والماء والكروكي لعنوانك وتليفون سكنك واثنين من المعارف وتعريف من العمدة، الذي في الوقت الحاضر لا يعرف معرفة شخصية حتى الساكن بالعمارة المجاورة له .. وقد تحصل على السيارة الجديدة وقد لا تحصل عليها.

وأنظمة جماركنا والدخول والخروج .. كلها أشياء تعوقنا عن الانضمام للتكتلات العالمية التي لابد من الدخول فيها عاجلاً، لكي لا نكون دولة بثقلنا ومكانتنا على هامش الدول التي لا يعبأ بها أحد.

إن بعض انظمتنا تحتاج إلى سرعة تغييرها لتتوافق والأنظمة العالمية الجديدة .. وكل موظف أو مسؤول يعوق هذا التغيير، لابد أن نستبدل به آخر ليتعامل مع الأنظمة، ومخاطبة المراجعين بأزارير الكمبيوتر والإنترنت.. وأية إدارة ما زالت تتعامل بموظف الصادر والوارد فعليها أن تقفل أبوابها أو أن تجاري العصر الذي نفترض مستقبلاً أن تجدد جوازك وأنت في منزلك ، وتحصل على الهاتف «بفورمة» تعبئها من موقع عملك، وتشتري كل أشيائك عبر الإنترنت.

وقد ينتهي عهد ذلك الصك الطويل العريض الذي تحتاج كتابته إلى ستة أشهر في المحكمة. وسيوضع على الرف ذلك الدوسيه الذي امتلأ أوراقاً من كثرة روح وتعال.

إن الوقت الذي ستنجز فيه معاملتك مع دخول الألفية يفترض فيه أنه لا يحتاج إلى ملف علاقي، ولا إلى راجعنا بكرة ولا إلى «فتح درج المكتب».

فقط نحتاج مثلاً إلى همة مصلحة المياه والصرف الصحي بجدة بالذات، لتوصيل شبكة المجاري وتعميمها على كل أحياء جدة حتى لا تعوق دخولنا عالم الألفية .. وإذا لم ندخلها فهي المتسببة في ذلك بعد خمس وعشرين سنة من التصريحات والكلام بدون فعل.

وأخشى ما أخشاه أن ينتصر في النهاية «الملف العلاقي» على الألفية بالضربة القاضية.

وسط العتمة التي تكتنف حياة الأغلبية من البشر، ينبثق أحياناً شعاع صادق من نور يقال له الوفاء يؤكد لك مجدداً بأن جانباً آخر من الدنيا ما زال بخير.

بالصدفة كنت مساء الجمعة الماضية أزور «بشكة المتقاعدين» من بعض قيادات ضباط الأمن العام السابقين بمنزل العقيد متقاعد شحات مفتي مدير مرور جدة السابق، وإذا بي أفاجأ بوجود بعض قيادات شرطة جدة والمرور والدوريات الحاليين ممثلة في العميد صالح العليان والعقيد محمد مغربل مدير الدوريات وعدد آخر من القيادات المختلفة، الذين لا تحضرني أسماؤهم ولا رتبهم مع الأسف الشديد، وهذا قصور مني أعترف به متعذراً.

وفي موقف غاية في الوفاء وجلسة حميمية، شعرت أن هؤلاء القياديين الحاليين جاءوا هنا إلى رؤسائهم السابقين، يدفعهم الحب والتقدير والوفاء لمن تعلموا منهم ما لا يمكن أن يتعلموه لو لم يكونوا على قناعة بكفاءتهم وشجاعتهم ورؤية من سبقوهم في الخدمة العسكرية.

ولم أستطع أن أمنع عواطفي الشديدة وإكباري لهم، عندما رأيت أحد هذه القيادات الحالية يميل على يد العقيد متقاعد شحات مفتي ويقبلها، من منطلق العرفان بالجميل وأن من علمني حرفاً يوماً صرت له عبداً.

ليس هذا فقط، بل إن ما رأيته وشاهدته في تلك الليلة كان أكثر من ذلك بكثير.. وكانت مصحوبة بمشاعر حميمية من الضباط الذين ما زالوا على رأس عملهم، تجاه زملائهم ورؤسائهم الضباط المتقاعدين، وقد أخرجني هذا الصدق في المشاعر والعواطف الجياشة بعض الوقت من حالات تشاؤمية تعودت أن تزورني بين الحين والآخر، عندما ألاحظ في أمكنة أخرى انعدام الوفاء والشهامة والنخوة من الذين كانوا في يوم ما رفقاء طريق وفي عمل واحد. ولكن ما إن يتقاعد أحدهم أو يترك العمل مستقيلاً حتى ينساه الآخر وقد لا يمشي حتى في جنازته إذا مات!

لقد كانت صورة رائعة وجميلة في تلك الليلة في منزل العقيد شحات والواقع العملي أروع وأجمل، عندما جاءت لحظات الوداع وشاهدت كل واحد يودع الآخر وكأنه لا يريد أن يترك المكان، لو لم يكن ينتظره هناك اجتماع هام أو معاملة أهم من ضابط في قسم شرطة، أو حادث مروري عطل الحركة المرورية في أحد الشوارع أو دورية تسأل العقيد محمد مغربل تحديد موقعه، لتعرض عليه قضية أو مشكلة تحتاج إلى تدخله الشخصي. وقد سمعت في تلك الليلة أجمل عبارة قيلت للعقيد شحات مفتي

وهو يودعهم على بوابة منزله الخارجية ملخصها يقول: «يا سعادة العقيد أنت تقاعدت من الوظيفة بالفعل ولكنك لن تتقاعد من قلوبنا أبداً».

وددت لو توقف الزمن عند عقارب الساعة الحادية عشرة صباحاً من ذلك اليوم الجميل وصوت تلك الجميلة يخترق مسامعي من جديد، بعد انقطاع دام ثلاث سنوات كاملة ظننت أنها دهر إذا لم تكن أكثر من ذلك بكثير!

وجاء الصوت المميز هذه المرة يحمل بشرى عزيزة جداً عبر أسلاك الهاتف .. ليقول: كيف الحال؟

وكان الصدى هو المجيب واعتقدت حينها أنها مجرد أحلام .. إلا أن الصوت عاد من جديد هامساً يتردد وهو يقول: عرفتني؟

يا الله .. وهل يمكن أن يغرق سَباحٌ وتأخذه الأمواج بعيداً بعيداً وينقلب به المركب ويشرف على الهلاك ثم في لحظة نادرة وبصيص أمل تعود إليه الحياة من جديد، عندما يكتشف أن القدر قذف به إلى الشاطئ، وعلى بعد خطوات منه «سمكة» صغيرة جميلة ورائعة تنساب بخفة وذكاء، لتشعره بوجودها وكأنها تقول: أنسيتني؟

وكيف أنسى من قالت لي يوماً في ذلك المشوار الوحيد إلى الجامعة: علم الاقتصاد والإدارة أحياناً يتحول إلى تفاصيل دقيقة متشابكة تؤدي بك إلى أن تكون حبيس المنزل، بحكم العادات والتقاليد التي لم نستطع حتى الآن انتزاعها من دواخلنا، مهما تعلمنا من الحياة وصفحات الكتب.

وانقطع الخط وتمنيت أن لا يعود الصوت مرة أخرى، حتى لا يكشف فينا أشياء نضعف أمامها ونتحول بسببها إلى تعساء يطلبون المعونة والعون، بأن لا يضع الله صديقاً لنا في مثل هذه المواقف التي تتعطل فيها لغة الكلام ولغة السمع ولغة النظر. ولكن الخط عاد من جديد وعاد صوتها واضحاً هذه المرة، ليؤكد أن هناك زمناً لابد أن نسقطه من حياتنا وقد تدخلت فيه الظروف، ولم يكن لنا فيه حول ولا قوة، وعلينا أن نعيش زمننا الحاضر ولحظاتنا الحالية وساعاتنا الآنية ونترك الماضي وراء ظهورنا ونقذفه بأشرعتنا ونقضي عليه، بما في داخل ضلوعنا من نبض يسع الاثنين معاً قال الزمان لهما يا زمان.

وبدأت الحكاية ولم تنته، ولن تنتهي، فقد جاوز الظالمون المدى، ولم يبق غير أمواج البحر وهي تنافسهما على الزمان والمكان الذي وضعا فيه أرجلهما وبصمات أيديهما ونبضات قلبيهما وبعض أكوام التراب الذي كتبا عليه قصة لقائهما، بعد أن تعاهدا على أن لا يفرق بينهما بعد الآن – ما اتفق على تسميته – بالعادات البالية، التي لا تعرف أن القلوب جنود مجندة .. ومهما حاول الآخرون أن

يمارسوا عليها الوصاية، إلا أنها في كثير من الأحيان تشب عن الطوق، لتعيش ما بقي من العمر بكل حلاوته وبدون أن يتلفتا إلى الوراء التعيس!

قالت: هداياي موجودة عندك؟

قلت: كما هي وكل ما أفعله كل صباح أن أمسح ما علق عليها من أتربة ثم ألقي عليها نظرة قبل الذهاب، وأثناء العودة من عملي، لدرجة أنني شعرت مرة أن المسألة أصبحت ذكريات، لكن القدر شاء من جديد وأصر أن تعود هذه الهدايا ثانية لتلبسيها في الحلق ومعصم اليد وتتعطري ببارفانها الفواح.

وقبل أن تضع السماعة سمعت صوتها يقول: إلى اتصال غداً بعد أن أعاد القدر أحلامنا من جديد!

السفر متعة، واختيار رفقاء الطريق متعة.

والأمتع من الاثنين معاً أن تكون متجهاً إلى مدينة الرسول صلى الله عليه و سلم. فما إن تقترب من هذه المدينة الروحانية الرائعة حتى تنفتح كل مسام جسمك وقلبك وعقلك فتذوب عنك كل الهموم شيئاً فشيئاً، وما إن تدخلها حتى تشعر أنك خارج من عالم هذه الحياة إلى عالم آخر أكثر اطمئناناً وراحة بال للنفس البشرية.

على إحدى الاستراحات في طريق المدينة، أكلنا السمك الطازج والخالي من أمراض التلوث، حيث يقال إنهم يصطادونه هناك من شواطىء «ثول» الصافية والنقية والتي حتى الآن لم تتوافر فيها «مقومات» تلوث الصرف الصحي والمصانع ومخلفات الشركات التي أصابت شواطئ مدينة جدة.

وفي الطريق، رأينا كيف أن سكان القرى الصغيرة على جنبات الطريق يستمتعون بنزول الأمطار ويفرحون بها ويخرجون إليها بصدور عارية كمن يقابل حبيبته لأول مرة، بينما سكان جدة يدعون ليل نهار من كل قلوبهم أن تهطل هذه الأمطار بعيداً عنها مرددين — اللهم حوالينا ولا علينا —، لأنهم يعلمون أن نتيجة نزول الأمطار على معشوقتهم سيحول شعرها الطويل الناعم إلى قصير وأكرد، وفساتينها ذات الألوان المتناسقة إلى ألوان متداخلة متنافرة، لا تستطيع أن تميز فيها بين الأحمر والأخضر والبنفسجي والبيج والرمادي.

وإن كانت الساعات العشر القليلة التي قضيتها في مدينة الرسول، ليست كافية للاستمتاع بالروحانية اكثر فأكثر، إلا أنها كانت كفيلة أن تتجاوز بي حالات الضيق والاكتئاب النفسي، التي بدلاً من أن أهرب منها إلى الطبيب فضلت زيارة مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام.

وتصوروا أيضاً المتعة الإضافية، عندما تكون مرافقاً ومصاحباً قطبين من أقطاب الصحافة مثل الدكتور عبدالله مناع وعلي حسون وكأنهما شاطر ومشطور — الذي هو أنا —والذي مازلت أمامهما — رغم تقارب السن — تلميذاً يتعلم أبجديات الصحافة.

وجربوا زيارة المدينة المنورة يا أيها المكتئبون.

الشكوى لله..

نظراً لما بيني وبين «الملف العلاقي» من عداءٍ مستحكم، إذا بي فجأة أكتشف أن ملفي الصحي في مستشفى الجامعة قد ضاع أو ربما «أكله الذئب»!

وسيفاجأ صديقي الدكتور عدنان مزروع مدير مستشفى جامعة الملك عبد العزيز بجدة أنني أعود إليه اليوم مرة أخرى، لأكشف له عن بعض الملاحظات والسلبيات الجديدة التي قد تكون خافية عليه - بحكم تشعب مسؤولياته المتعددة والكثيرة -، انطلاقاً من كوني - شخصياً - مديناً لهذا المستشفى ولبعض أصدقائي من أطبائه ، لأنني أذهب إليه كلما شعرت بتجدد آلامي العضوية والنفسية.

ولم يكن ضياع الملف هو الملاحظة الأولى، ولا العثور على ملف آخر باسم المريض عبدالحميد هو السلبية الثانية، بل الأدهى هو تحويلي بالخطأ في ذلك الصباح الباكر -وأنا صائم - إلى قسم آخر غير قسم المناظير الذي لم يكتشف العاملون به أن هذا المريض قد أرسل بالخطأ إليهم إلا في اللحظات الأخيرة .. وقبل إدخالي إلى غرفة العمليات لقسم لم أتبين تخصصه حتى الآن.

عاد بي حامل الملف إلى قسم الاستعلامات مرة أخرى ثم تركوني قليلاً «للتشاور»، وبعدها استدعيت مرة أخرى .. وحمل عامل آخر نفس الملف باسم «عبدالحميد»، وأنا معه إلى الدور الأول حيث قسم المناظير .. وفي استراحة هذا القسم سمعت بعد قليل من ينادي باسم عبدالحميد ،وحيث إن اسمي قد تحول بقدرة قادر إلى «عبدالحميد» فقد قفزت من مكاني لأجيب على النداء .. وعند ممرضة سعودية — اكثر الله من أمثالها — سألتني للتأكد قبل أن تضع شريط اسم المريض في معصمي ولكنها عندما سمعَتْ اسماً آخر استغربت .. وحينما تأكدت من الأوراق داخل الملف، تناولت المزيل وهي تبتسم ثم أزالت اسم عبدالحميد وكتبت اسمي مكانه.

وشعرت - ولأول مرة — في هذا المستشفى أن الممرضة تجيد وضع الإبرة في شريان المريض دون تكرار، خلافاً لمن تعاملت معهن سابقاً من الممرضات اللاتي يمارسن الطعن بكافة أشكاله في يد المريض قبل الوصول إلى الشريان.

أخيراً .. وبعد ست ساعات من بقاء الإبرة في شريان يدي وأنا نائم على السرير، جاءتني دكتورة سعودية اسمها «نوال الثبيتي» إن لم تخني الذاكرة لتسألني: هل تحب أن أجري لك المنظار فطبيبك الدكتور عدنان مرداد قد يتأخر ؟ ولم أتردد لحظة واحدة في الموافقة وقد سعدت جداً أن تكون الطبيبة

سعودية والممرضة كذلك.

وسعدت أكثر، عندما شعرت بقيمة وكفاءة ولمسات الطبيبة السعودية الحانية وتمكنها من عملها والدكتورة نوال تغوص بمنظارها داخل معدتي بكل رأفة ورحمة وإنسانية، لدرجة أن هذه الابنة والطبيبة الماهرة قد أنستني آلامي وإصراري الدائم على أن لا أسلم معدتي إلا لطبيبين فقط لا غير هما، عدنان مرداد ويوسف قارئ.

وليت الدكتور المزروع يعلم عن مدى الإزعاج الذي يحدثه باب قسم المناظير والذي عندما يفتح ويقفل يشعر المريض أنه في ورشة وليس في مستشفى جامعي يتطلب هدوءا وسكينة .. فهل إصلاح باب يحتاج هو الآخر إلى إمكانيات؟

سؤال بريء ....!

الناس من هنا «رايحين» !!

في كل مرة أقول : إن علي أن أتوقف عن الكتابة وأعطي لنفسي إجازة مثلي مثل كل عباد الله من الكتاب الذين يتحولون في مثل هذه الأيام إلى طيور مهاجرة إلى بلدان العالم الواسعة التي من أهمها عربياً .. القاهرة وبيروت والمغرب .. وعالميا لندن وباريس وأمريكا.. إلا أنني في آخر لحظة أعدل عن ذلك، باعتبار أن العين بصيرة واليد قصيرة – حيث إن هذه الرفاهية والمنجهة، لا يقدر عليها إلا كتاب في مثل وزن الصديقين: عبدالله أبو السمح الذي يتخذ من مقهى الشانزلزيه مكاناً – للنظر فقط – في الغاديات والرائحات من ذوات الخمار عربياً وفرنسيا، والآخر محمد صادق دياب الذي يهمه في لندن ركوب «الأندرقراوند» والبحلقة ذات اليمين وذات الشمال وأكل البيتزا الإيطالية في أحد مطاعم «كانزوي رود».

حتى السياحة الداخلية التي نعقد عليها الآمال «حسب الإمكانيات المتاحة» ، غدت مطلباً صعب المنال .. والعائدون من هناك يذكرون لنا أن الأسعار غدت ناراً لمن يريد أن يصطحب عائلته، ليقضي عدة أيام في فندق أو شقة متوسطة المستوى .. ولابد أن يدفع مبلغا وقدره، إذا ما قيست بأسعار الفنادق أو الشقق في الخارج لبلدان عربية شقيقة مجاورة لنا.

أما البعض الذين يحسدوننا على أننا نقيم ونعيش في جدة ويقولون أن من يسكن جدة عروس البحر الأحمر لا يحتاج إلى مدينة أخرى كي يتنزه، أو «يسوح» أو يقضي إجازته خارجها وهم لا يدرون أننا «طفشانين» جداً، ليس من جدة الاسم والمعنى والمدينة وإنما من جدة الحُفر والمطبات والشوارع الداخلية «المبعوجة» والغارقة في مياه البيارات والمجاري، واستنشاق الهواء الملوث في النهار والليل، المصحوب بتلك الروائح الكريهة التي تكاد تكون سمة من سمات هذه المدينة، التي لم يكتب لها حتى الآن الشفاء من هذا المرض المزمن الذي يجثم على أنفاس سكانها .. ولم يكتب لهم بدل هوائها الملوث هواء صحي نظيف يجعل مدينتهم تستحق أن تطلق عليها تلك العبارة الإنشائية التي تقول: «الناس على هنا جايين».

وهؤلاء الجايين لو تعمقوا في الدخول إلى شوارعها الداخلية لفروا هاربين وأطلقوا شعاراً يقول: الناس «من هنا» رايحين!

ليت صديقي المسؤول يعلم عن مدى السعادة التي شعر بها ذلك الساعي المسكين الغلبان، عندما ساعده في إنجاز معاملته التي توقف إنجازها عند أحد موظفيه.

إن عدم قدرته على دفع غرامة – غير مقصودة – حالت دون توافرها ظروف مادية صعبة استمرت خمس سنوات كاملة. وهو الذي لا يتعدى راتبه ألفاً وخمسمائة ريال، وله في عمله حوالى عشرين عاماً لم يزد راتبه خلالها هللة واحدة. ومع ذلك كان صابراً وراضياً بما قسمه له الله من رزق.

ولم يمنعه شظف العيش وصعوبة الحياة عن الابتسامة الدائمة .. لكن عندما ضاقت به السبل في عدم مقدرته على تسديد هذه الغرامة، جاء طالباً الشفاعة عند المسؤول الذي تردد كثيراً في قبولها في بادئ الأمر.

وإذا عجز هذه المرة عن تدبير قيمة الغرامة، فقد عجز كثيراً قبلها عن توفير لقمة العيش له ولأسرته وأولاده .. وحتى عندما يتأخر صرف راتبه شهراً واحداً، تراه راضياً قانعاً بما هو عليه من وضع يبرره أحياناً ويقيسه بما هو عليه غيره من أحوال أكثر صعوبة وأكثر قسوة من أحواله. وتراه فتحسبه غنياً من التعفف، لكن لو وضعت يدك في جيب ثوبه الناصع البياض لما وجدت مليماً واحداً.

أكثر من مرة رأيته يقطع المشوار من منزله إلى عمله ذهاباً وإياباً .. وسيلته الوحيدة قدمان، عندما يسحبهما أحياناً من حذائه ليستريح قليلاً من مشقة تعب المشوار، تقع عيناك مباشرة على ندوب وتشققات في كعبيه من آثار مشوار الطريق.

وهل تصدق يا سيدي أن نفسه عفيفة، ويمنعه التعفف – في كثير من الأحيان – من أن يقول لزميل له يملك سيارة: خذني في طريقك.

هذه نوعية خاصة ونادرة من البشر تفرض عليك – ظروفها الصعبة – أن تقف بجانبها حسب إمكانياتك ومقدرتك. ولهذا عندما لم أستطع إقناع صديقي المسؤول في إمكانية تجاوز الغرامة عنه، لم أتردد في الاستعانة عليه بمن هو أكثر حظوة عنده مني، مصراً على ألا يعود هذا الساعي المكافح في ذلك اليوم إلى أسرته حزيناً كئيباً .. ويكفي أنه جاءني في اليوم التالي منشرح الأسارير ليقول: يبدو أن صديقك المسؤول هذا سيدخل الجنة إن شاء الله، لكثرة دعواتي ودعوات الأسرة له، بعد أن فك ضائقتنا التي استمرت خمس سنوات لعدم مقدرتنا على دفع الغرامة، رغم محاولاتنا المستميتة على توفيرها من الراتب.

«هو في أحلى من أكل اللحمة؟!».

ليس في مقدوري الآن بالذات أن «أبطل أكل اللحمة»، مهما كانت الأسباب .. وقد رخص سعرها جداً بعد انتشار حمى الوادي المتصدع والذي أوصل سعر الخرفان إلى مبالغ متدنية جداً، بحيث وصل الكساد ببعض المطاعم والمطابخ إلى أن أقفلت أبوابها «بالضبة والمفتاح» وذلك نتيجة لظروف ستعرفونها لاحقاً.

لقد كنت محروماً – في صغري – من «أكل اللحمة»، لأسباب عديدة ومتنوعة، وعلى رأسها ضيق ذات اليد لعائلة محدودة الدخل، بل «مدقعة الدخل» جداً .. إذا وجدت غداءها لا تجد عشاءها ولا إفطارها، إلا بالكاد من قطعة خبز أو «رغيف حاف» مغموس «بكاسة الشاي بالحليب» .. لذا كان من المستحيل علي بعد أن كبرت وعملت وتعبت وشقيت وأصبحت المادة في يدي وإن كانت محدودة أن «أبطل» أكل اللحمة ولو من أجل أن لا أكون ومن أعولهم محرومين في كبرهم من أكل اللحمة، حتى لو طرأت ظروف صحية تحول بيني وبين أكلها.

صحيح أن من في المنزل قاطعوا أكل اللحمة .. إلا أنني شخصياً مازلت مستمراً في أكلها وبإصرار ولو من منطلق تلك الأيام الخوالي والسنين الماضية التي كنت فيها أرى وأشاهد – من بعيد – رقاب وصدور وأفخاذ الخرفان معلقة على واجهات دكاكين الجزارين، ولكني لا أملك هللة واحدة تسمح لي على الأقل بشراء نصف كيلو لحمة أفرح بها وعائلتي التي تعيش فقرا مدقعا، مثلها مثل أكبر العائلات في ذلك الزمان الشحيح قوتاً .. والعالي نخوة وكبرياء.

أخيراً، فكر أهل بيتي أن يخضعوني إلى مشاركتهم أكل الدجاج والسمك .. إلا أن محاولاتهم باءت بالفشل وأنا أصر على أن تكون وجبة غدائي مكونة من كبسة الرز باللحم، عوضاً عن تلك الأيام الخوالي التي كنا نحن جيل الوسط نكحل أعيننا بمنظر اللحمة الجميل، وعلى طريقة إخواننا المصريين: هذه اللحمة للشم وليست للأكل.

وقد أقسم كل من في المنزل أن لا يعودوا إلى أكل اللحمة، حتى يروا بأم أعينهم معالي الدكتور أسامة شبكشي وزير الصحة يعود لأكلها، رغم أنه يقول أن إقلاعه عن أكلها جاء بسبب أنها تصيبه بالتخمة وتؤثر على مواصلته العمل في مكتبه الذي يقول أنه يمكث فيه أكثر من ثماني عشرة ساعة يومياً.

إلى عبد الله عمر خياط

اعتذر لي أصدقاؤنا في «البلاد» و «المدينة» عن نشرهذه «الكليمة»، بحجة أن عبد الله خياط صديق لهم ولديه حصانة.

والغريب أنه ينتقد الآخرين ولا يسمح لأحد أن ينتقده ، والذي يفعل سيجد تقريرا ساخنا بانتظاره .. ولكن أعتقد أن أصدقاءنا في «الندوة» ليست لديهم حصانة لأحد .. والحجة تقرع بالحجة.

لقد اطلعت على ما كتبه الأستاذ عبدالله خياط عن مجلة «الإعلام والاتصال» في زاويته مع الفجر يوم الثلاثاء الماضي، ولم يكن الأمر بالنسبة لي مفاجأة أن تنتقد المجلة ورئيس تحريرها، ولا أن يصبح كل من يمتدحها عازفا في فرقة المناع .. كل ذلك أمر معروف وليس فيه جديد .

ولكن الجديد أن أعضاء فرقة المناع يعرفون أدق التفاصيل عن مسار الخياط الصحفي يوم كان رئيساً لتحرير عكاظ وما تلا تلك الفترة ، ويعرفون أكثر كيف تعامل ويتعامل مع بعض «أصدقائه» و «رفاق دربه» – من «حسن» إلى «سعيد»!!

فقط أردت أن أقول لأبي زهير أننا لا نكيل بمكيالين .. وأن وفاءنا لأصدقائنا وزملائنا لا تحكمه المصالح ولا الأغراض الشخصية.وحتى لو استخدمنا معهم أحيانا واحدة من مواهبك «كاللغوصة» مثلا ، إلا أننا لسنا متخصصين في «الإضرار بالناس».

ويهمني أن يعلم أنني فخور جداً بأن أكون من «جوقة» المناع والتي انضم إليها أخيراً كثيرٌ من الزملاء الذين امتدحوا أول عدد من مجلة «الإعلام والاتصال» .. بل إن الصحف والمجلات أفردت لها مساحات كبيرة أشادت فيها بمحتوى العدد مادة وإخراجاً وتبويباً.

وإذا كانت هناك فئة أزعجها أن يكون أول عدد رائعاً ومميزا وأرادت أن تتصيد الأخطاء، لأن عبدالله مناع هو أول رئيس تحرير لمجلة الإعلام والاتصال، فهذا شأنها ولا بأس من أن يكون أبو زهير محبا للجريدة التي يكتب فيها «عكاظ»، ولكن أرجو أن لا يكون ذلك على حساب جريدة البلاد التي يبدو أنه اكثر من التعرض لها مع معرفتنا التامة بالمسببات والأهداف والنوايا.

أما يكفيه الفصل يا دكتور؟!

لا ادري، أهذه مرثية .. أم تشهير .. أم حسن نية .. أم فاتورة مدفوعة الثمن مقدماً أو مؤجلة الدفع إلى حين، أم ماذا يا سعادة الدكتور؟

قد يُحْسَبُ للصديق الدكتور فهد العرابي الحارثي عضو مجلس الشورى، ورئيس مجلس إدارة جريدة الوطن، وصاحب شركة أسبار، أنه كان قائد «الأوركسترا» في مجلة اليمامة سابقاً ، ويعود إليه الفضل في فترة رئاسته لهذه المجلة، حين نقلها نقلة نوعية عالية النبرة وشديدة الحماس والصراحة في اكثر مواضيعها وتحقيقاتها الصحفية الأسبوعية. ولا شك مطلقاً انه يأتي من أوائل رؤساء التحرير الناجحين الذين يعدون على أصابع اليد الواحدة، بين رؤساء تحرير صحفنا ومجلاتنا المحلية.

ولهذا استغربت جداً كتابته الأخيرة التي جاءت على شكل حلقات في زاويته «سحاب الكلام» في جريدة الوطن عن أحد محرري الجريدة الذي اجتهد في تغطية إحدى الجولات الصحفية، فكان مصيره الفصل من جريدة الوطن.

وكثيرون يتساءلون: أما كان بالإمكان الاكتفاء بقرار الفصل هذا لكي تنهال عليه بسياط من كلمات قلمك «النافذ» ، وأن تعتبر أنه اجتهد وأخطأ في نقل خبر، وكأنك نسيت في فورة حماسك أن مسؤولية نشر الخبر يشترك في حملها آخرون، يفترض فيهم التحقق من مصدر الخبر أو التحقيق أو التغطية الصحفية. وإذا كان هناك شكك – ولو بسيط – في مصداقيته ، فقد كان من واجبهم ، قبل نشر الخبر ، أن يتأكدوا من صحته، خصوصا إذا كان الخبر يحمل معلومات هامة وحساسة.

والحقيقة أنني لم أعهد في الدكتور فهد إلا رجلاً مدافعاً عن الحق، مستميتاً في الدفاع عن محرريه، عندما كان رئيساً لتحرير مجلة اليمامة. وقد وقع في تلك الفترة أكثر من محرر في أكثر من إشكال قد يكون أصعب من خبر المحرر المفصول، فدافع الدكتور العرابي عن اجتهاد المحرر وأقنع المسؤولين بحسن النية، ولم يسبق قط في عهده في مجلة اليمامة، أن فصل محررا أو أوقفه عن الكتابة مدة طويلة أبداً. لكن أستغرب في عهده الجديد في جريدة الوطن أن تميل بوصلة الدكتور مائة وثمانين درجة إلى الناحية الأخرى، ولا يكتفي بفصل المحرر بل يزيد الطين بلة، حين شهر به على رؤوس الأشهاد وكأنه يطبق المثل القائل: إذا طاح الجمل كثرت سكاكينه.. مع أن هذا المحرر الغلبان ليس جملاً وإنما حمل وديع افترسه الدكتور.

إن ما قام به الصديق فهد من اعتذار للجهات المختصة التي عناها الخبر، هو اعتذار ليس له

ما يبرره، كون الجهة المختصة قد ردت وأوضحت الأمر وفسرت الالتباس بتعميم وزع على جميع الصحف .. إلا أن يكون الدكتور له وجهة نظر في هذا التبرير، لاعتبارات قد تصب في مصلحة الدكتور نفسه وجريدة الوطن. لكن أما يمكن أن تكتفي جريدة الوطن بالتصحيح الذي قدمته الجهة المسؤولة وتكتفي أيضاً بفصل المحرر؟ وإن كان في هذا إجحاف كبير – من وجهة نظري – على افتراض أن حسن النية متوفر في المحرر، ثم معاملته على أساس انه اجتهد في نقل الخبر، ومن اجتهد وأصاب فله أجران، ومن اخطأ فله أجر.

إن الفصل والتشهير لا يجب أن يكونا عقابا لمن اجتهد، خصوصا أننا نمضغ الكلمات صباحاً ومساء بفضيلة الاجتهاد .. إلا إذا كنا في صحافة زمن القيادة الصحفية التي تقول: أنا وبعدي الطوفان.

انتشار طب المشالح !!

يعود الفضل في هذا العنوان لأحد كبار الأطباء من المهمومين بالشأن العام، عندما اطلع على خبر انتشار الأمراض المعدية وبجانبه خبر آخر عن جولة مسؤول صحي ومعه عدد من «المتمشلحين» الذين كانوا يرافقونه.

ولست أدري، ماهو دور المراكز الصحية الأولية التابعة لوزارة الصحة ؟ هل تحول دورها إلى مجرد استئجار مبنى من ثلاثة أدوار في الحي؟ وهل يكفي تعليق لوحة على واجهة المبنى الخارجي باسم المركز؟ وأنه تحت إشراف الشؤون الصحية بجدة؟ وماذا يفيد التعاقد مع شركة خدمات لتزويد المركز بعامل أو عاملي نظافة، أو تكليف طبيب أو طبيبين من حديثي التخرج، ومثلهما طبيبة أو طبيبتان من نفس المستوى؟ وهل تثبيت عدد من اللوحات ذات الشعارات التي لا تتغير مثل «الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى» كاف لأن يكون سكان الحي كلهم أصحاء؟ أم أن المسألة على طريقة فاقد الشيء لا يعطيه؟ فإذا كان الأمر كذلك .. فأعتقد أن من الواجب أن لا تُنَظِّرَ علينا وزارة الصحة، وتدعي أن دورها يتعدى ذلك إلى معالجة ومتابعة الحالات الصحية لجميع سكان الحي.

أما الخدمات الصحية في المستشفيات الحكومية الكبيرة فدونها خرط القتاد .. و لايختلف الأمر بالنسبة لعلاج سكان الحي عن طريق المراكز الصحية، التي اتضح أن وجودها في الأحياء مثل عدمهما وليس لها من اسمها نصيب غير المسمى.

والحقيقة أن معظم سكان الأحياء معتمدون في علاجهم وعلاج أسرهم على المراكز والمستوصفات الخاصة المنتشرة في أحيائهم كانتشار البقالات و«السوبر ماركيت» . ولو كان للمراكز الصحية الحكومية دور، لما اضطر أغلب سكان الحي – من «الغلابة» والمساكين من ذوي الدخول المحدودة – اللجوء إلى العلاج في هذه المستوصفات الخاصة. وتكبدهم تكلفة الكشف والدواء على حساب «علبة النيدو» ، وقيمة كيلو اللحمة الذي تحصل عليه بعض الأسر في الشهر مرة واحدة فقط.

وليس مستغرباً – بعد كل هذا – أن يعاني بعض أفراد الأسر المعدمة من أمراض معدية كالجدري، والسل، والتيفويد، والحصبة، والكبد الوبائي. ولكي تكون لملاحظاتنا هذه مصداقية، أتحدى وزارة الصحة أن تعطينا إحصائية دقيقة بعدد المرضى، من الذين لم تصل إليهم الرعاية الصحية الأولية من الأطفال فقط، بصرف النظر عن كبار السن، الذين توغلت في أجسادهم الأمراض المعدية، عندما لم تصل إليهم جرعات التطعيم في الوقت المناسب .. إما لنقص التوعية التي يفترض أنها من أولى

أولويات المراكز الصحية الأولية – إذا كان يهمها سلامة وصحة مواطنيها من سكان الحي – أو عدم الاستطاعة في مراجعة مستشفى خاص، يذبح المريض من الوريد، إلى الوريد حتى لو تعلق الأمر بجرعات التطعيم.

أنتم والزمن عليهم !!

صديقي الدكتور بكر خشيم مدير عام شركة كهرباء الغربية، لم يجد من يتهمهم «بالسفه» في استهلاك الكهرباء وعدم الترشيد، إلا أصحاب الشرائح الدنيا من مشتركي الكهرباء. وقد جاء ذلك في حديث نشرته إحدى المطبوعات – الاقتصادية – عن سبب عدم شمول التخفيض الأخير لهذه الشرائح.

يا سبحان الله ..

إن كرمك هذا، ليؤكد المثل القائل «السقيفة ما تطيح إلا على الضعيفة» .. ولم تجد يا صديقي الدكتور غير تلك الإجابة غير الموفقة، التي تسببت – ويعلم الله – في سقوط دمعة من عيني على غير إرادتي.

وليتك يا صديقي بكر خشيم تعرف أن الترشيد عند هؤلاء الناس أصبح نظام المرور الجديد. وقد شمل الترشيد كل شيء وليس الكهرباء فقط .. بل امتد إلى فاتورة الهاتف، وفاتورة الماء، ووقود السيارة، وسعر علبة النيدو، وملابس العيد، لدرجة أن الواحد منهم – لشدة نحوله – لا يجد غضاضة من ربط الحزام وسط جسمه، كلما ركب سيارته القديمة التي أنّت طويلاً من عوامل الزمن.

حرام عليكم أيها الصديق، أن تتهم هذه الشريحة بعدم ترشيد الكهرباء، وبعضهم قد اكتفى بإضاءة لمبة واحدة في منزله ومكيف واحد، حتى أن لمبة الحمام استبدل بها لمبة سهاري صغيرة هو بالكاد لايرى من خلالها موطئ قدميه.

ولماذا نحن دائما نقسو على هذه الفئات محدودة الدخل دون وجه حق؟ سوى أنهم ينتمون إلى قبائل الفقر الذي قال عنه سيدنا عمر بن الخطاب «لو كان الفقر رجلاً لقتلته».

ودعونا – بالله عليكم – إذا لم نستطع أن نعمل لصالح هذه الفئات شيئاً، فلا أقل من أن نتعاطف معهم معنوياً ونشعرهم بذلك التعاطف ولا نجعلهم عرضة للتهم والتقريع، كلما أردنا أن نبحث عن مشجب نعلق عليه أخطاءنا ومبرراتنا، التي لا تعد ولا تحصى.

ألا يكفيهم ماهم فيه من حاجة وعوز ومحاولة للتغلب على ظروف ومشاق الحياة بجدهم واجتهادهم؟

رفقا بهم يا صديقي الدكتور .. واعمل بأصلك الكريم وافعل شيئاً يعيد تعرفة استهلاك الكهرباء إلى سابق عهدها – قبل الزيادات الأخيرة – بدلاً من تعليق الشماعة على فئات المشتركين من ذوي الدخل المحدود، بأنهم لا يلتزمون بالترشيد.

وتأكد يا صديقي أن بعضهم – وأعرفه شخصياً – يضيء منزله بلمبة أو لمبتين من عند الجيران

وبعضهم الآخر -إذا لم تدر- يكتفي عند مراجعة أطفاله لدروسهم، على أنوار لمبات سور الجيران الذي ينير كل المنطقة المجاورة .. ولا تسألني أين يقطنون وفي أي حي .. فلو سألت لن يكون السؤال في صالحك أيها الصديق، الذي كلما قابلتك شخصياً رأيت وجهك يشع نوراً .. أما وجوه المتضررين من ارتفاع استهلاك الكهرباء،س فهي دائما حزينة من شدة الظلام .

والظلام ياصديقي لا «يضرب» إلا الصغار .. أما الكبار فيضربون الظلام بمدافع من الشمس والقمر.

إنها حقاً لمأساة!

أستيقظ هذه الأيام صباحاً بعيون مثقلة أضناها السهر، بسبب ما تبثه لنا تلك الفضائيات «المحترمة» من أخبار ومعلومات عن آخر ما وصلت إليه انتفاضة أبنائنا وأشقائنا في فلسطين المحتلة.

تحت إشارة المرور وفي الطريق إلى العمل في ذلك الصباح الباكر، تقدم مني واحد ممن تعودت أن أراهم يمدون أيديهم تحت الإشارات المرورية.

تجاهلته .. ورغم أنه لاحظ ذلك، إلا أنه كرر المطالبة بالنقر على زجاج السيارة، يريد أن أنتبه له وأعطيه المقسوم، ولم أفعل، ورأيته أخيراً يشيح بوجهه عني ويتمتم ببعض الكلمات التي لم تخرج عن كونه غاضباً وساخطاً ومتذمراً على واحد مثلي منشي في نظره و«منشحط» داخل سيارته ويتعالى حتى عن فتح زجاجها، ليقول لواحد مسكين مثله يطلب صدقة: الله كريم.

وشعرت أنني أخطأت في حقه .. فإذا لم أمد له يد المساعدة فعلى الأقل احترم مشاعره وأصرفه من أمامي بقول لين وحسن مثل: ربنا يعطيك لكنني لم اشعر بخطئي إلا متأخراً وبعد أن أضاءت الإشارة الضوء الأخضر استعداداً للتحرك.

على أي حال .. عدت من عملي في حدود الساعة الرابعة عصراً، حيث أراد الله أن ألاحظ ذلك الرجل المسكين في إشارة أخرى في طريق العودة، فأسرعت إلى إصلاح خطئي معه بطريقة ما، لكن كيف لي أن اصلح ما في داخلي من حالة حزن وتعاسة شديدة، وأنا أشاهد يومياً أطفال الحجارة وشبابها الغض يتساقطون ويموتون تحت لهيب رصاص العدو الإسرائيلي.

إنها حقاً لمأساة تقصر العمر، مهما كنت تعيش حياة مستقرة، فبعض الناس لا يستطيع أن يتحكم أو يضبط مشاعره، عندما يرى ويشاهد هذا العهر الإسرائيلي الذي يمارس على أحبتنا في فلسطين من أبناء الشعب الأعزل، الذين لا يملكون ما يدافعون به عن أنفسهم سوى الحجارة .. بينما جيرانهم في بعض الدول العربية، هناك ترسانات أسلحة قد علاها الصدأ والغبار والأتربة على مدى سنوات التخزين.. أليس في الإمكان مدهم بالمساعدة في تخفيف وصد حدة الهجمات الإسرائيلية التي تقوم بها يومياً القوات الإسرائيلية وكأنها تمارس «ماتشاً» رياضياً مضمون النتيجة؟

إن بعضنا يموت بالسكتة القلبية والبعض الآخر يموت موتاً بطيئاً، لكن المشكلة في الفئة الثالثة التي دائماً أصابعها على أزارير الريموت، مركزة على القنوات المسلية والأخرى التي تخاطبك من

أهذا مزيد من الإذلال ؟!

تصور نفسك رجلاً محالاً على التقاعد، بعد أن أبليت بلاءً حسناً في الوظيفة وقدمت من خلالها ما يمكن أن تقدمه من أعمال تشرفك وتشرف وطنك وتريح بها ضميرك، لكن كل هذا الذي قدمته طوال حياتك الوظيفية، يأتي فجأة موظف صغير في إحدى الإدارات الحكومية أو الخاصة ويمسحه باستيكة، عندما يمارس عليك نوعاً من الإذلال الذي يأتي عادة في صورة تجاهل كامل لك وأنت تقف على رأسه بورقة المراجعة في شأن من شؤون حياتك التي لا تنتهي أبداً في مجتمع فُطِر – من المهد إلى اللحد – على كثرة أوراق المراجعات .. وروح وتعال بكرة .. إلى آخر يوم في حياتك.

لقد أحزنني جداً وأنا استمع بين الحين والآخر، إلى ذلك البوح الجريح من بعض هؤلاء المتقاعدين الذين يشعرون بكل أنواع الانكسار الظاهر على وجوههم، وفي داخل نفوسهم من جراء المعاملة القاسية التي يقابلون بها من موظفين صغار وكبار، لا يقيمون وزناً لا لرجل كبير في السن ولا لرجل عاجز، جاءهم يتوكأ على عصاه واضطرته الظروف للمراجعة في أمر من أمور حياته، ولا يقال له على الأقل – من باب الأدب –: استرح يا عم علي حتى تنتهي معاملتك.

لقد رأيت بأم عيني، كيف أن بعض الموظفين يشيحون بوجوههم عن رجل كبير عاجز في السن، أجبرته قسوة الحياة على التعقيب على معاملته بنفسه، ثم يتركونه واقفاً في الطابور دون أن يتقدم أحد منهم بشهامة ورجولة ليخرجه، لينهي معاملته على الأقل من منطلق إنساني بحت. ولم يغب عن بالي ذلك الموقف المؤلم، عندما رأيت يوماً رجلاً مسناً في الثمانين من عمره يقع على الأرض فجأة من شدة الإرهاق والتعب. بعد أن انتظر طويلاً أمام موظف قاسي القلب، لم يشغله في كل حياته سوى الانشغال بين الحين والآخر بإصلاح عقاله وغترته المنشاة.

ولا أظن أن تلك النماذج من الموظفين المتقاعدين كبار السن، الذين يتعكزون على عصيهم أو الاتكاء على جدران البنوك، تغيب عن بالكم يومياً وهم ممسكون بفاتورتي الكهرباء والهاتف اللتين جاءوا لتسديدهما تحت قسوة الحاجة، إما لعقوق أبنائهم في عدم تسديدهما عنهم أو لعدم وجود من يكفيهم مؤونة الوقوف أمام موظفين، انتزعت من قلوبهم الرحمة في مساعدة كبار السن، واستبدلت مكانها كل أنواع القسوة والإذلال وإشاحة الوجه، لدرجة تظن أحياناً أن هذا المتقاعد الطاعن في السن الذي جاء يتوكأ على عصاه، قد أكل يوماً مال الوالد – والد ذلك الموظف – الذي حين يرآه واقفاً أمامه، يمارس عليه كل عُقده الوظيفية.

أذكر ذلك اليوم جيداً، عندما جاءني ذلك الصديق العزيز أثناء غربتي في لندن عام ١٤٠٢هـ هارباً من الصحافة المحلية وهمومها ومشاكلها وقال: هل تريد أن ترافقني في رحلة إلى نيويورك لترى عالماً آخر غير عالم هؤلاء الإنجليز الذين عدوك بـ«البُرود»، بحيث لا تغادر غرفتك في الفندق المتواضع جداً والكئيب، إلا لتشتري الجرائد والمجلات العربية التي أبعدتك جداً عن تعلم اللغة الإنجليزية؟

قلت له بدون مقدمات أو تفكير: هل تريد أن تنقل بدوياً مثلي نقلة حضارية أخرى إلى أمريكا رأساً وهو الذي لم يفق حتى الآن من الصدمة الحضارية التي أصابته منذ أن وطئت قدماه مطار لندن؟

وفي نفس اليوم، أخذ جوازي ثم أتى لي بتأشيرة من السفارة الأمريكية في لندن وبتذكرة السفر، لدرجة أنني أصبت فعلاً بصدمة حضارية ثانية، عندما استخرج التأشيرة وقطع التذكرة وحجز لي معه في ساعات محدودة لم أرافقه فيها، بل جلست في صالة الفندق الكئيب أمارس عادة القراءة إلى أن عاد، وحتى قبل أن أطلب كاسة الشاي الثانية من نادل الفندق!

في اليوم التالي، كنا في شقته في قلب مانهاتن، حيث صدمت بالصدمة الحضارية الثالثة وأنا اصعد معه العمارة التي تعتبر حينها من ناطحات السحاب، وهي تكشف أمامي كل مدينة نيويورك عن بكرة أبيها، من تمثال الحرية إلى مبنى الأمم المتحدة إلى مركز التجارة العالمي الذي انهار مؤخراً على من فيه، بعد أن اخترقته طائرتان أمريكيتان مختطفتان من قبل من سمو بإرهابيين، لم تتضح معالمهم بعد، وما زال البوليس الأمريكي يتخبط في إلقاء التهم على أولادنا المبتعثين هناك بطريقة عشوائية ارتجالية، لا تلمس فيها أي ذكاء لمحققي السي . آي . اي، الذين كان يشاع عنهم انهم يستطيعون معرفة ما بداخل غرفة نومك!

توارت كل هذه الخواطر أمامي وأنا متسمرٌ أمام شاشة التلفزيون، أتنقل من محطة إلى أخرى لمعرفة آخر الأخبار في حادثة القرن التي أصابت أمريكا في مقتل وتأثر بها العالم كله .. وعندما لاحظت إحدى بناتي شرودي المريع مع هذه الأحداث سألتني: ما الحكاية؟ قلت لها أثناء ما كانت الصورة التلفزيونية تمر على حي مانهاتن: لقد كنت يا ابنتي يوماً ما هناك أقطف شيئاً من الحضارة من منبعها، ومن يومها تعلمت ألا أضربك مهما كانت أخطاؤك، لدرجة أنك الآن تتمنعين عن إعطائي كاسة ماء بارد لأشرب وتقولين: أليست الحضارة تقول يا أبت عليك أن تخدم نفسك بنفسك؟!

بل ذهب العرف يا سيدي!

الأستاذ الكاتب «المحترف» عبد العزيز الذكير صاحب زاوية «نافذة الرأي» في جريدة «الرياض»، إضافة هامة وراقية لهذه الجريدة، لما يطرحه قلمه من أفكار ناضجة لا نملك أمامها إلا أن نرفع «القبعة» احتراماً له.

وقد وجدته في زاويته ليوم الأربعاء الماضي يقلل من أهمية تشاؤمنا من كثرة «أصدقاء المناصب» بل ويقول: «إن الظاهرة موجودة ولكنها ليست بذلك الحجم الدرامي الذي يصورها بعض المجتهدين والمتحمسين من كتاب صحفنا».

وحيث إن الاختلاف مع كاتب كبير كالأستاذ عبدالعزيز هو اختلاف المحبين له، لكن عليه أن يتأكد أن الظاهرة موجودة، بل منتشرة، بل تكاد تكون مثل «الهم على القلب» إلى الدرجة التي لم نستطع منها الفكاك وهي تكدر خواطرنا يومياً وفي كل لحظة وفي كل مجلس، إلا ما ندر.. وإذا كان هو يغشى المجالس ويرى غير ذلك فهو يغشى مجالس قد تكون منتقاة .. لكنه لو دخل مجالس أخرى كثيرة لرأى كيف «أصدقاء المنصب» يلتفون حول المسؤول كالذباب، سواء في مكتبه أو في منزله أو عند سيارته، وسيصدم كثيراً، خاصة إذا عرف أن أغلبهم لا يأتون إلى المسؤول للشفاعة وإنما للشفاعة المغلفة بأغراض خاصة .. وأحياناً تكون من الشفاعات التي هي في حكم الراشي والمرتشي وما بينهما.

تفاءل «سيدي» إلى آخر مدى .. لكن أرجوك ألا تسقط حق الآخرين في التشاؤم وقد رأوا وشاهدوا بأم أعينهم من الممارسات مايشيب له الولدان.

«أيش رياء» .. و «أيش نفاق» .. و «أيش امسك لي واقطع لك» ، أما رأيت ياسيدي يوماً الأفاقين يجلسون عند الأبواب بجوار الأحذية، عندما يكون المسؤول في منصبه؟ وعندما تدور به الدوائر ويترجل من الكرسي أو يطاح به يتقدمون علية الصفوف، بل يتجاهلون أحياناً حتى تحيته بالسلام ؟. أما الأعراف التي تتحدث عنها، فقد تلاشت وأهيل عليها التراب، منذ أن أصبحت كلمة «الشيخ» تطلق على كل من هبّ ودبّ.

تجاهل أوامر «الداخلية» !

هذه هي النتيجة الحتمية لتجاهل نصائح وأوامر «وزارة الداخلية» التي هي زوجتنا العزيزة.

ولو كان لي من الأمر شيء لما جئت هذا الصباح ،الخميس ، إلى عملي اجتر قدمي اجتراراً من آثار سهرة طويلة ليلة البارحة، لم يكن لي فيها لا ناقة ولا جمل، سوى الخضوع لعادات وتقاليد بالية أكل عليها الدهر وشرب، تفرض عليك أن تشارك فيها كمدعو من الدرجة الأولى، رغم أنك في تلك اللحظة تتمنى لو كنت مدعوا من الدرجة العاشرة، لكي يتجاهلك أصحاب الدعوة ولا يقيمون لك وزناً، خاصة إذا كنت من «الأشعبيين» الذين يحضرون بعض الأفراح دون دعوة.. وعندما تمتد سفر الأكل يهجمون على «تباسي» الأرز وكأنهم لم يأكلوا منذ سنة كاملة.

وفي البيت، اضطررت أن أترك قصة أدبية لم أكمل قراءتها، ونسيت أيضاً قراءة جريدة أحضرتها معي من العمل، حرصت على قراءة أحد مواضيعها الهامة في المنزل، لكن لم يحدث ذلك، ولم يحدث أيضاً أن ألبي طلب العزيزة «وزارة الداخلية» بأخذها على الكورنيش في نزهة لم تتحقق لها منذ شهر، واعتذرت لها بأنني لا أستطيع إرجاء دعوة صديقنا فلان الذي سيكون زفافه هذه الليلة ولابد من تقديم «الرفد» له مهما كانت الأحوال، رغم غناه الباذخ.

وأنا داخل قصر الأفراح، هالتني تلك الجموع من البشر الذين يرحبون ببعضهم البعض ويصرون على تقبيل الخشوم واللحى وتبادل القبلات على الوجه، بحيث لابد أن يخرج تلك الليلة أكثر من واحد حاملاً فيروساً أو بكتريا، أقلها الانفلونزا التي لا تخرج منك إلا بعد أخذ المضادات الحيوية التي لا يستبعد نقلها إلى أحد أفراد أسرتك، مهما كنت حريصاً.

وقد عدت من هناك أترنح يمنة ويسرة من شدة الإعياء، بعد أن أصبت بعدوى كم حاولت أن أتحاشاها .. ومررت على صيدلية وطلبت منه دواء يخفف تلك العدوى التي تلبستني فجأة .. إلا أن الصيدلاني قال ينصحني: إن حالتك شديدة ولابد من مراجعة الطبيب، وفي ذلك الهزع الأخير من الليل كنت في عيادة أحد الأطباء، حيث طرحتني الانفلونزا أرضاً وأخرجت كل ما في جيبي من نقود .. مائة ريال كشف ومائة أخرى قيمة الدواء ولمسات سريعة من سماعة الدكتور قال في نهايتها ربما تحتاج غداً إلى تنويم. ومع ذلك لم أسلم من تقريع وزارة الداخلية – زوجتي – في البيت التي قالت متهكمة تستاهل ما جرى لك، لو طلعتنا الكورنيش ما هو أحسن، بدلاً من أن تخسر جسمك وتخسر فلوسك، بينما الأمر كله لا يحتاج منك أكثر من فاكس إلى الداعي لحضور زواجه لتقول له: مبروك.

تحليلات متناقضة!

لا أخفيكم أن تحليلات د. وديع كابلي، أستاذ الاقتصاد في جامعة الملك عبد العزيز بجدة، ترفع لي «الضغط» أحيانا.

وكنت أتمنى مرة واحدة فقط، ان يقنعني الصديق الدكتور وديع بتحليلاته البترولية والاقتصادية. وقد بشرنا مؤخراً في مقالة طويلة عريضة منشورة في جريدة عكاظ، بمرحلة طفرة قادمة تفوق في ازدهارها طفرة الثمانينيات والتسعينيات، التي اغتنى منها من اغتنى ممن «يعرفون من أين تؤكل الكتف» ، وظل البعض الآخر «يضرس» حتى كان القبر لحافه.

ومنذ كان الدكتور الكابلي يحلل لنا أسعار برميل البترول – منذ عدة سنوات ارتفاعاً وانخفاضاً – ونحن نكتشف بعد أيام أن تحليلاته في وادٍ وأسعار برميل البترول الحقيقية في وادٍ آخر مع الأسف، ولم أجد مرة واحدة أن تحليلاته صائبة، حتى عندما جاء ليكتب في الشأن المحلي، لكسب مزيد من القراء الذين انصرفوا عن تحليلاته البترولية والاقتصادية.

وجاء مرة حاملاً السلم بالعرض، عندما هطلت مرة على مدينة جدة أمطار غزيرة جداً أغرقت سيولها الشوارع وأطاحت ببعض المنازل الشعبية وهوت بالأشجار الواقفة .. وإذا به يكتب في اليوم التالي مقالاً رناناً، يؤكد فيه أن الأمطار التي هطلت على مدينة جدة ليلة البارحة لم تغرقها أبداً .. ولم يجد لها أثراً في طريقه، بدليل أنه خرج بسيارته «اللكزس» لابساً بنطلونه «الجينز» ومؤكداً أنه قطع المسافة من منزله إلى بوابة الجامعة .. ولم تصل إلى سيارته رشة ولم تعلق ببنطلونه قطرة ماء واحدة، رغم أنه نزل من سيارته أكثر من مرة ليستمتع بالسماء التي كانت حينها ملبدة بالغيوم.

وفي الوقت الذي كنا نقرأ مقالته في صباح اليوم التالي .. كانت السيول ما زالت تنهمر والسيارات المتعطلة تملأ الشوارع وفرق الإنقاذ تنتقل من مكان إلى آخر، لإنقاذ الناس الذين لم يتمكنوا من الوصول إلى منازلهم، حتى أنني ظننت – وأنا أقرأ مقاله – أن الصديق الدكتور وديع كان نائماً فحلم بذلك المقال وكتبه وهو لم يبرح فراشه.

وأخيراً، مقاله الذي بشرنا فيه قبل عدة أيام بالاستعداد لقدوم عهد طفرة ثانية تفوق مثيلتها الماضية التي أتمنى عند قدومها – إذا صح كلام الدكتور وديع – أن تصلح ما أفسدته الطفرة الأولى في نفوس بعض الناس، الذين «لهطوا» كل شيء ولم يبقوا شيئاً حتى الفتات، للذين لم تزل أنفسهم أبية وتراهم تحسبهم أغنياء من التعفف.

تخويف الجميلات .. جميل !!

كان من باب الصدف أن أصبح جاراً لصيقاً للمأذون الشرعي الشيخ احمد عبد القادر المعبي في حي البوادي بجدة.

ويصح لمن هو جارٌ لمأذونٍ شرعي مثل الشيخ أحمد المعبي، أن يرى ويطلع على ما لم يطلع عليه غيره من الناس.. لأن ظروف الناس والأسرار العائلية غاية في الدقة، ومغرقة في التفاصيل الدقيقة التي سيظل يراها تقع أمام عينيه صباحاً أو مساءً.

وإن كان بعضها مفرحاً، عندما يتمكن الشيخ «مثلاً» من جمع رأسين في الحلال، ثم ترى العريس خارجاً من داره فرحاً سعيداً بدخوله عالم الزوجية الذي يتمناه كل شاب وفتاة قد تجمع الأقدار بينهما أحياناً، عن طريق الصفحات التي يعدها الشيخ المعبي نفسه أسبوعياً لطالبي الزواج في إحدى المطبوعات هنا.

وبرغم انشغال الشيخ بهذه القضايا الاجتماعية والإنسانية الهامة، التي لم يعد بسببها يجد وقتاً حتى للجلوس مع أسرته وأولاده، إلا أنني أراه في كل مرة سعيداً مستبشراً بما يقدمه من خدمات لمجتمعه، باعتبارها من أهم القضايا الاجتماعية التي تشغل بال الشباب والشابات، وخصوصا بعد أن توسعت المدن ولم يعد في الإمكان الزواج عن طريق الخاطبة أو خطبة بنت الجيران أو بنت الخال أو بنت العم، التي كانت في زمن مضى مقدراً لها منذ ولادتها أن تكون – عندما تكبر – عروساً لابن عمها.

عادة في الطريق إلى المسجد نتحادث أنا والشيخ أحمد، ثم يميل علي أحياناً بعد الخروج من الصلاة مازحاً وهامساً ليقول: أما تريد أن تثني؟! فأرد عليه قائلاً: هل أصبحت الشابات بهذه الكثرة إلى هذه الدرجة، بحيث تعرض علي أنت التثنية وقد بلغت من العمر عتياً.؟

وفي تصور الشيخ، أن بعض شابات هذه الأيام يهربن من الزواج بالشباب الذين هم في أعمارهن، مخافة من كوارث الطلاق التي كثيراً ما تعقب الزواج بعد فترة بسيطة، ويصر بعضهن بالاقتران بمن كان ناضجاً، بشرط أن لا يكون قد بلغ مرحلة الكهولة والهرم والتي لا يرجى من ورائها شيء.

الشيء الوحيد الذي يقربني من هذا الشيخ، انه يأخذ الأمور باليسر والسهولة وليس بالعسر. ولهذا يقبل عليه الجميع ويعتبرونه أحد أفراد العائلة، يعرضون عليه أمورهم وطلباتهم ومشاكلهم وبدون تردد أو حذر أو خشية، لكن الوحيدة التي ترتاب منه حقيقة كلما سمعت عنه أو وقفت للتحدث معه، هي زوجتي التي تقول أنها لن يستقر لها بال حتى اقطع علاقتي بهذا الشيخ أو ننتقل بعيداً عنه في

حي آخر.

لكني مصر على جيرة هذا الشيخ ولو من باب «تخويف الجميلة ولا فَجْعَتْها»، لأن زوجتي العزيزة ما زالت تقدم لي كل الخدمات وعلى كفوف الراحة .. وقد يكون ذلك خشية أن أفعلها مرة أخرى وأتزوج مرة ثانية .. ولا أخفيكم سراً إذا قلت أنني سعيد جداً بهذا الجوار.

بقي أن الزوج الذي يتمسك بزوجة نافرة منه وكارهة له هو زوج – البعيد عنكم – ليس عنده كرامة وكذلك ينطبق الأمر على الزوجة !!

تساهل الأستاذ .. و «دونشية» الطالب؟!

كلما وقعت عيني هذه الأيام على خبر صحفي مفاده نزول «شوحط» على ظهر معلم، أو إطلاق رصاصة إلى رأس أستاذ، أو توجيه لكمة إلى وجه مرب من قبل الطالب، تحسرت على تلك الأيام الخوالي التي لم أستطع من خلالها أن آخذ حقي بيدي، كما يفعل الطلبة هذه الأيام .

كانت وسيلة المعلمين الوحيدة في السنوات الماضية في التعليم والتربية، هي الضرب المبرح الذي يصل إلى حد إسالة الدماء من وجهك وقدمك، بحيث قد يضطر الطالب المضروب إلى قطع المشوار إلى منزله، نصفه مشياً ونصفه زحفاً من آثار تورم قدميه من خيزرانة المعلم التي لا ترحم كبيراً أو صغيراً.

وكلهم في العقاب سواء، قبل أن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن ويتحول الطالب إلى ضارب والمعلم إلى مضروب في زمن «شفيق يا راجل»!!

وليس مستغرباً هذه الأيام، أن يؤدب الطالب أستاذه، ليس بالتهجم عليه ورفع الصوت، وإنما وصل الأمر إلى حد انتشار ظاهرة ضرب الطلاب لمعلميهم بالبواكير، والسواطير، والمسدسات، وأحجار الزلط. ومن يحاول الاستنجاد من المعلمين بزملائه يكمن لهم الطلبة بعد الانصراف من المدرسة في أي ركن من أركان الشارع – سواء كانت عامة أو فرعية – وهات يا تلطيش، ولكم، وكلمات نابية، ومطارق على الظهر والرأس، تماما مثلما كنا نتعرض له من المعلمين وأساتذة أيام زمان من عقاب شديد، باستثناء أن معلمي زمان لا يتفوهون بكلمات نابية ولا يحملون مسدسات ولا سواطير.

«ويا ويلك ويا سواد ليلك» لو حاول أي طالب إيصال خبر مجازاته إلى أهله. فمن المؤكد انه سيتعرض لعلقة ساخنة أخرى وبدون مناقشة، وقد تكون أكبر وأقسى من علقة الأستاذ .. وقد يجرونه في اليوم التالي مثل الشاة إلى المدرسة، لمقابلة الأستاذ والاعتذار له أولاً عن ما بدر من ابنهم من خطأ حتى لو كان بسيطاً .. واعتبار أن ما أخذه من جزاء لا يكفي ولابد من مضاعفته هذا اليوم وأمامهم .. مصحوباً بتلك الجملة المأثورة التي تقول: «لكم اللحم يا أستاذ ولنا العظم».

وقد تمنيت من كل قلبي أن أعيش هذا الوقت «السبهللة» كطالب ولو ليوم واحد، لأفعل مع أستاذي ما يفعله طلبة هذه الأيام بأساتذتهم الذين فيما يبدو أن مظهر الملابس المنشاة لبعضهم، وسياراتهم المتعددة الأنواع ،قد جرأت الطلبة عليهم وتحولوا إلى ما يشبه «الملطشة» لكل من «هب ودب» من الطلبة وغيرهم. ولا أستبعد يوماً يقول فيه الطالب وهو جالس على كرسيه لأستاذه الواقف أمامه

تعرفون وجه «البقشة»؟!

منذ بدأنا نطلق التصنيفات على الناس حسب الأمزجة والأهواء، ويتشدق بعضنا في المجالس بأننا نتقبل الرأي والرأي الآخر، ونحن في حقيقة الأمر نتقبل أنفسنا فقط لا غير.

هنا بدأت الكارثة تطل برأسها وتصبح عاهة مستديمة في المجتمع وبين شرائحه المختلفة، التي ليس لها شغل ولا مشغلة غير إطلاق النعوت على هذا وذاك، هذا ثوبه طويل، وذاك ثوبه قصير، هذا قومي، وذاك ناصري، هذا يساري شيوعي، وذاك يميني متزمت ومتخلف. وهناك بقية نعوت وأوصاف من التي يحبها قلبك، عندما تسمعها من مثقفين يقال لهم زبدة المجتمع وجه «البقشة» مما يصيبك بالغثيان، من أنماط تافهة حرام فيها حتى الأكل والشرب.

لكن أحياناً أخرى، تشعر أن هناك فئة – وإن كانت قليلة – تكبر على تلك التصنيفات، عندما يكون همها في الدرجة الأولى الشأن العام وليس شيئاً آخر، حتى أنك تشعر أحياناً من شدة تعمقها وتحمسها في هذا الأمر أنها مثل المتبتل في محرابه، طلباً للمغفرة والأجر والثواب.

أول مرة أرى فيها هذا الشيخ الشاب الملتحي الدكتور محسن العواجي وجهاً لوجه وأسمعه وأنصت إليه وهو يتحدث مع جمع من الحضور في بيت محمد سعيد طيب، ليزيل تلك التصنيفات والنعوت من قواميس بعض المثقفين، الذين كانوا لا يتصورون الجلوس يوماً مع شيخ دين إلا بفكرة مسبقة ومبيتة، على أن كل شيوخ الدين على درجة كبيرة من التزمت وعدم قبول الرأي الآخر. فجاء الشيخ الدكتور محسن العواجي تلك الليلة، ليمسح ما علق في أذهاننا عن رجل الدين الذي عادة ما يخيفنا بتجهمه، فما بالك لو تحدثت إليه.

تكلم الشيخ العواجي في كل شيء وبعمق شديد ودون تزمت، ذكي، حاضر البديهة، حاضر النكتة، سمح الوجه، غير وجهة نظره أكثر من مرة عندما شعر أن السائل على حق، بل أكبرته عندما حاول عبدالله أبو السمح أن يستفزه، وإذا به يرد عليه بأحسن ما يكون الرد، وأحسن ما تكون السماحة، لدرجة أن صديقنا أبو السمح المخالف دائماً لرأي الأكثرية، خرج من المجلس متسللاً تزفه نظرات الشامتين فيه من الأصدقاء. وقد كانت ليلة حميمية جداً استفدنا منها بأكثر مما استفاد الشيخ، أذابت الكثير من الفوارق والتصنيفات التي يطلقها البعض عادة من أجل أن يقول عنه سذج المجتمع: والله أبو فلان مثقف كبير.

شكراً للشيخ محسن العواجي، الذي أزال حديثه تلك الليلة كثيراً من الالتباسات بين رجل الدين

وكثير من المثقفين، ومني شخصياً الرهبة التي يضعها بعض رجال الدين أحياناً سياجاً، لتبقى صورتهم في أذهان الناس العاديين مشوشة، بدلاً من أن تكون متخطية كل الحواجز بنصاعتها كما فعل الشيخ العواجي ، دون أن نشعر نحن المستمعين إليه بأي تكلف منه وهو يخوض في كل الأمور والمجالات الحياتية والاجتماعية، بكل رؤية وشفافية غير مسبوقة.

«جيمسات» شارع التحلية !!

بدأت تهل علينا – في مدينة جدة – أفواج السياح الذين يريدون أن يشاركونا متع التسوق والتنزه فيما بقي من كورنيش، وبدأت طلائع «الجيمسات» تظهر في شارع التحلية وبعض الأمكنة الأخرى، التي تتواجد فيها الأقدام الناعمة ولابسات العباءات.

وبدأنا نرى السيارات المظلل زجاجها من كل الجوانب. ولم يعد مستغرباً أن ترى جيمساً يسابق الريح في شارع التحلية أو في طريق المدينة بدون لوحات خلفية.

أما تلك الأرقام التي تتساقط على بعض العوائل والأسر السائرة في طريقها تبحث عن نسمة هواء، فحدث ولا حرج!

وكأن كل امرأة تتسوق أو تسير في الطريق العام قابلة للمعاكسة وراضية باستقبال أرقام هواتف المعاكسين، الذين جاءوا إلى مدينة جدة وفي أذهانهم أن كل امرأة تسير في الشارع يمكن معاكستها، لدرجة أن بعض العائلات من سكانها تقفل على نفسها الباب بالضبة والمفتاح داخل منزلها ولا تخرج منه، حتى تختفي بعض سيارات الجيمس التي يقودها شباب مشكلته الوحيدة أن كل شيء متوفر له من عود الكبريت إلى السيارة، وهو مازال على مقاعد الدراسة، ثم نلومه على ما يصدر منه من أفعال تخدش الحياء، بينما والده الذي وفر له كل وسائل الرفاهية هذه، ربما يكون هو الآخر في عالمه الآخر الذي قد لا يختلف كثيراً عن ما يمارسه ابنه من أفعال مشينة.

وليس جديداً هذا الذي نقوله، لكن الجديد هو ظهور أنواع جديدة من المضايقات والمعاكسات، التي ظهرت مع ظهور موضة القنوات الفضائية: «وأنتم على الهواء مباشرة مع رولا ورازان».

ثم إن وسائل الحضارة الحديثة دائماً ما ترتقي بأذواق ومفاهيم المجتمعات التي صنعت واخترعت هذه الوسائل، لكن دور الأكثرية من شبابنا لا يتعدى الانبهار بهذه الاختراعات واستعمالها بعقلية من لا يعرف سوى ركوب الجمل، ومن مازال يتصور أن المرأة ما هي إلا مجرد جسم وعباءة ترمي لها برقمك فتسرع لالتقاطه، بينما الأكثرية منهن، عندما يحاول أحد أن يمارس معها هذا التصرف المشين ترد عليه باحتقار شديد جداً .. وما أصعب أن تنظر إليك امرأة بشيء من الاحتقار والدونية.

ليس للرئاسة العامة لتعليم البنات من دافع للتقدم بنظام التقاعد المبكر للمعلمة، سوى أن يضمن موظف الرئاسة بقاء السلطة الرجالية ومقدراتها في يده، قبل أن تسحب المرأة البساط من تحت أقدامه فيجد نفسه بعيداً عن اتخاذ القرار.

فلقد حاك بعض الموظفين بالرئاسة من الذين شعروا بالخطر القادم عليهم، هذه الفكرة واقترحوا هذا التقاعد المبكر، بحجة إعطاء الفرصة للفتيات حديثات التخرج، ليضمنوا أن هؤلاء الجديدات يحتجن إلى وقت وسنوات طويلة لكي «ينمو لهن ريش»، وعندها يبادرن في المطالبة بحقهن للوظائف القيادية.

وإلا ماذا يعني هذا النظام «الأعرج» والمكتوب له الفشل مقدماً حتى لو صدر وطُبق، لأنه نظام سيولد ناقص النمو، وينقصه النضوج، وسيحمل الكثير من الثقوب والثغرات التي لا تخلو من «الغرضانية»، التي تحدث أحياناً بين الرجل والمرأة، خاصة إذا شعر الرجل أن هناك خطراً من المرأة على كرسيه الوظيفي الذي يعتقد أنه أحق به من المرأة، والتي يعتقد أنها تريد من خلاله أن تتحكم وتحكم سيطرتها على ذلك الصرح - الرئاسة - التي يجب أن تؤول قيادتها إليها، بعد أن أصبحت على درجة عالية من الكفاءة والمقدرة التي أوصلتها أخيراً إلى تسنم أعلى المراكز القيادية المتقدمة في الأمم المتحدة.

إننا لا ننكر الدور الرجالي الذي قامت على أكتافه الرئاسة العامة لتعليم البنات في مرحلة من مراحل البداية عند إنشائها، عندما كانت الفتاة تقدم رجلاً وتؤخر أخرى في سبيل تعليمها الذي صاحبته بعض الظروف الاجتماعية، لكن هذا لا يعني أن يستمر الوضع كما هو عليه، في عصر وصلت فيه الكفاءة النسائية، إلى أن أصبحت تحمل أعلى الشهادات المصحوبة بالنضوج العلمي والفكري.

وعليه يجب أن نقر بمتغيرات العصر ولا نكابر في قدرات الكفاءات النسائية، وأن لا نصر على بقاء إدارة الرئاسة العامة لتعليم البنات تحت قيادة الرجال .. مع تقديرنا واحترامنا لكفاءتهم. فلابد أن تؤول هذه الرئاسة إلى الكفاءات النسائية القادرة والمؤهلة .. وصدق المثل الشهير «اعط العيش لخبازه حتى لو أكل نصفه».

أحسد الأخت البندري الشعلان أنها مستمرة حتى الآن في الكتابة، رغم ما يقال حولها من شائعات أنها رجل، أو أنها في كتاباتها تتستر خلف اسم رجل.

ولست أدري في الحقيقة، ما مدى صحة هذا القول الذي وصلتنا منه «طراطيش كلام» هنا في المنطقة الغربية .. هل نصدقه أو ننفيه.. وهذا ليس من اختصاصنا، ولكن الوحيد الذي أعتقد أنه يفتي في هذا هو رئيس التحرير، لكن الذي يجعلنا في حيرة من أمرنا، هو كثرة الكلام الذي بعضه «يدوش» حتى لو لم يكن صحيحاً.

طبعاً، أعرف أن تزامن كتابة الأخت البندري مع تسلم رئيس التحرير رئاسة جريدة اليوم، ثم مناقشة بعض المواضيع بطريقة حادة وعنيفة، كان له دور في إطلاق تلك الشائعات، لكن على أية حال نحن معشر «الخناشير» نغبطها على ما تطرحه من مواضيع، ونعترف بأننا أحياناً نجبن عن طرح مثلها لأسباب عدة، من أهمها أن المرأة عندنا تتمتع بحصانة لا يتمتع بها الرجل، ولو على الأقل ذلك الجالس على الكرسي الذي يعطي «تعظيم سلام» لمواضيع المرأة .. أما مواضيع الرجل فيكشر عن أنيابه ليضبط بقلمه أي كلمة كذا وكذا .. وإن كانت التجارب قد علمتنا كيف يتم «الزوغان» من قلم الرقيب، الذي قد يضبطنا أحياناً متلبسين بالهجوم على الأخت البندري وأمثالها.. ونحن في الحقيقة ننطلق من منطلق الغيرة لا أكثر ولا أقل، عندما نلمس أنها تفرد عضلاتها لتقول ما تشاء .. أما لو فعلنا نحن ذلك لسمعنا من يقول لنا: «شوف البايخ» هذا كيف يهاجم الجنس الناعم ليطفشها من الكتابة في الصحافة، مع أن المرأة في هذه الأيام ليست محتاجة لمن يدافع عنها، وقد تحصنت بالعلم الذي أوصلها إلى مكانة تحسد عليها من بعض «الخناشير».

حليمة في الجوازات

بماذا يذكركم اسم «إدارة الجوازات»؟! ألا يذكركم بطيب الذكر الفريق أسعد عبد الكريم، الذي عندما جاءها يوماً مسؤولاً عن إدارة الجوازات، قلب سافلها عاليها وأخرج منها الطحالب وسوّى النتوءات، وألقى بعض الملفات العلاقي، وقضى على اسطوانة: «تعال بكرة وبعده.. وراجعنا بعد أسبوع»، إلى درجة أن تحولت إدارة الجوازات في عهده مثلاً للإدارة الناجحة والمنجزة، التي تستطيع أن تنهي فيها معاملتك دون أن تلتفت ذات اليمين وذات الشمال، بحثاً عن معرفة أو طلباً لفيتامين «و».

واليوم إدارة الجوازات – مع الأسف الشديد– وأقصد جوازات جدة تذكرنا بالمثل القائل «رجعت حليمة لعادتها القديمة»، وذلك لكثرة الروتين البغيض. وأصبح هناك طابور طويل جداً يتلوى كالحية وقد يصل امتداده إلى الشارع، ظناً من المسؤولين في الجوازات أن تطبيق بعض الأنظمة والإجراءات الجديدة سيؤدي إلى تسهيل الإجراءات، وإذا بهم يُعقّدونها، بل يجعلون المراجعين يتذكرون على الفور طيب الذكر والعهد الماضي من الإجراءات السريعة والسلسة والتي وضعت إدارة الجوازات في مصاف الإدارات الحكومية، التي عرفت كيف تتعامل مع المراجع بأسلوب وطريقة حضارية يضرب بها المثل، بإنجاز معاملات المراجعين بكل يسر وسهولة، إن لم تكن هي الوحيدة بين كل الإدارات الأخرى تسهيلا وتيسيرا لأمور الناس.

وحتى تكون ملاحظتنا موثقة، فقد أصبح يستحيل أن تراجع هذه الأيام بأبسط معاملة لك، وتستطيع أن تنجزها في الحال، بعد أن أُلغِيَ إجراء تسليم معاملتك لموظف الشباك، ثم الانسحاب وإعطاء الفرصة لغيرك والعودة بعد ساعات أو في اليوم التالي لاستلامها وتحول الإجراء الجديد إلى الوقوف أمام موظف الشباك حتى تنتهي معاملتك، سواء أكانت معاملة واحدة أو مائة معاملة، مما يؤدى إلى تعطيل المراجعين وزيادة امتداد الطابور وسط لهيب الشمس المحرقة، بعد أن الغي إجراء وضع معاملتك في كيس والعودة إليها في اليوم التالي، لتجدها منتهية وتستلمها مطمئناً مرتاح البال.

ولو فكر المسؤولون في جوازات جدة بمعاناة الطوابير الطويلة من المراجعين أمام الشبابيك هذه الأيام وخرجوا من مكاتبهم المكيفة لمدة دقائق ورأوا حالة المراجع وما هو عليه من الضيق والتذمر من إجراءاتهم الجديدة، لما كابروا في الرجوع إلى النظام القديم الأيسر والأسهل الذي يقول: ضع معاملتك في الكيس وعُدْ إليها بعد الظهر أو غداً لاستلامها.

إن مُراجع الجوازات المحظوظ اليوم، هو من يعرف كيف يتجاوز الطابور ويصل إلى مكاتبهم بطرقه

الخاصة، أو ذلك الذي – قبل أن يصل لإدارة الجوازات – قام باتصالاته «الجوالية»، فوجد حين حضوره كل الأبواب والشبابيك مفتوحة في انتظار «حضرته» بالأحضان.

يركبني ألف عفريت، بمجرد أن يطالبني الأولاد بالخروج معهم في نزهة على الكورنيش أو إلى أحد المراكز التجارية، لشراء ما يحتاجونه من متطلبات في نهاية عطلة الأسبوع.

وقد تحججت كثيراً من قبل بكل شيء، إلى درجة أنني استنفدت كل الأعذار ولم يتبق منها غير ذلك الذي تعود بعض الموظفين تقديمه لمديريهم، والذي بموجبه «يميت» الموظف والده مرة .. ومرة أخرى والدته.. ومرة ثالثة عمه .. إلى درجة أن أحد هؤلاء المديرين – والذي جارى موظفه في كل أكاذيبه تلك – بعد أن أمات نصف أفراد العائلة ولم يلبث أن شرح على آخر طلب تقدم به «الموظف» طالباً الاستئذان ليقول له: «متى سوف ينتهي آخر مسلسل الأسرة ونرتاح»؟

لكن «ومع الأسف»، لم أستطع أن أقدم على ما أقدم عليه صاحبنا الموظف، ليس ترفعاً وإنما لكون الأسرة على ارتباط وثيق وتواصل كامل بمعرفة أبعد رجل أو امرأة في القبيلة «الفايدية»!

و «لعب الفأر في عبي» وقلت سأعتذر هذه المرة عن النزهة، بحجة وفاة أحد الزملاء وليكن من الذين لا يعرفونهم، كبعض زملائنا الصحفيين الذين توفاهم الله فكرياً منذ زمن ولم يبق إلا أن يموتوا جسدياً!

ولم أكد ألمح بهذا الاعتذار، حتى فضحتني عيناي أمام ابنتي البكر «انتظار» التي قالت لي مازحة: العب غيرها!!

وكانت النزهة إجبارية .. وقد لا تصدقون أنني عدت وقد ركبني العفريت رقم واحد بعد الألف، بسبب هؤلاء «الدُشّْر» الذين ليس لهم أهل يربطونهم في منازلهم، بعيداً عن أذية خلق الله الذين يبحثون عن نسمة هواء نقية، بعيداً عن العلب الخرسانية والكتل الأسمنتية، التي إما أن نختنق داخلها طوال الأسبوع، وإما أن نصبر ونتصبر على معاكسة هؤلاء الأشرار من الشباب والكبار المراهقين، الذين أقسم بالله أنهم لا يعرفون حتى الألف باء من «فنون المعاكسة» إلا مقدار ما يعرفه قردة «البابون»، عندما يلمح أحدهم قطة تائهة!

وقد عدت من البحر وفي يدي أربعة أرقام بين هاتف جوال وهاتف منزل وآخر استغل انشغالنا وأعطى ابنتي الصغيرة أحد الأرقام.

ولست أدري، كيف تمكن هؤلاء التعساء من وضعها على زجاج سيارتي من الخارج .. وكأن أي فتاة كاملة راشدة، سوف تبادر على الفور بالاتصال بهؤلاء الذين يريدون اقتحام الشبابيك بينما لو كانوا

عقلاء مثلاً لطرقوا الأبواب إذا كانت نواياهم سليمة ومقاصدهم شريفة، بدلاً من «بروزة» أنفسهم بملابسهم المنشاة والتنطع بسياراتهم بمحاذاة الأسر الجالسة، ثم يرمون بأرقام هواتفهم هكذا على طريقة «يا صابت يا خابت». ولم يدر هؤلاء أن هذه الطريقة العقيمة اسمها «سنة أولى ترقيم» والتي تحتقرها كثير من الفتيات ذوات التربية المحترمة اللاتي يحملن شيئاً من النضج.

بعد فترة قصيرة، تكون قد مرت سنة كاملة على هذا – الجميل– معالي المهندس عبد الله المعلمي أميناً لمدينة جدة .. ونحن إذ نجدد التهنئة لمعاليه، نرجو أن يسمح لنا أن نجدد في نفس الوقت ما نراه ونسمعه ونشمه ونتعثر به أرجلنا وسياراتنا في كل ثانية.

كل صباح، أفتح عيني وأفركها على شوارع في مدينة جدة، مازالت تشكو وتئن من آثار الأمطار التي لم تستمر أكثر من ساعة، ولكن خلفت وراءها الكثير من الأضرار البيئية والنفسية على سكان المدينة وزائريها، والتي لم تختف آثارها حتى الآن.

ويبدو أن مدينة جدة موعودة بالتعاسة منذ عدة سنوات، بسبب بنيتها التحتية والفوقية التي لم تجد أحداً يحافظ عليها، من كل الأمناء الذين تعاقبوا عليها بعد طيب الذكر أول أمين لها.

لكن ما زال الأمل يحدوني أن يفعل لها الأمين المهندس المعلمي الذي دخل سنته الأولى في هذا المنصب شيئاً – ولو بسيطاً – يدعو للتفاؤل. وقد أصبحت حالة المدينة من سيئ إلى أسوأ، إلا إذا كان معالي الأمين يخبئ لسكان المدينة عملاً كبيراً وضخماً، سيسعد السكان ويدخلهم جنة الدنيا من أوسع أبوابها.

إنني أدعو مع إشراقة كل صباح ومع مغيب كل شمس، أن يوفق الله معالي الأمين إلى أن يحقق شيئاً لهذه المدينة، التي تعيش على سمعة ماضيها الجميل الذي أظنه لن يعود إلا بعمل ومجهود خارق يريح سكانها من ما يعانون منه في شوارعها وطرقاتها التي لم تعد شوارع ولا طرقات، بل أتربة ومطبات وحفر ومنحنيات. والصورة الوحيدة المقبولة لا تجدها إلا في شوارع وطرقات قليلة محددة ومعروفة، قد يمر فيها معالي الأمين ذاهباً وعائداً إلى منزله. فهل يعلم معاليه بأن هناك شوارع وأحياء في جدة خرجت حتى من مسمى شوارع وأحياء منذ فترة طويلة؟

أخيراً، أريد أن أذكّر معالي الأمين أنني ما زلت محتفظاً بكلماته الحماسية والمتفائلة في بداية استلامه لمنصب الأمين قبل عام. فهل أظل على تفاؤلي أم أن الأمر سيؤدي بي إلى أن أدخل في مرحلة التشاؤم والاكتئاب، كلما رأيت حالة هذه المدينة تزداد سوءاً وتردياً؟ خصوصا عندما تحولت معظم الأحياء إلى كتل أسمنتية، وحولها خدمات بدائية عبارة عن مياه آسنة تحيط بها أكوام العشش والأكواخ من كل جانب.

شاهد على بطاقة مديرة!

أحمد الله كثيراً - وأخيراً - أنني وصلت مع بعض أصدقائي إلى نقطة التقاء ما كنت سأصل إليها، لو لم يكن هذا القرار الحكيم المتعلق ببطاقة أحوال المرأة.

ولي أصدقاء وزملاء من علية القوم، وآخرون من قاع المدينة، وفئة ثالثة من حواري وأطراف مدينة جدة، ومثلهم يسكنون ما بعد شرق الخط السريع، لكنهم جميعاً قبل حوالى عشر سنوات بالضبط يأخذون عليّ صفة التحرر، لأنني أؤيد استخراج بطاقة أحوال للمرأة مستقلة عن الرجل، لعدة اعتبارات لا تخفى عليكم ولا تمنع أيضاً من قيادة المرأة للسيارة إذا كانت مهيأة لذلك.

وفيما سبق، كان كل هؤلاء الأصدقاء والزملاء والمعارف المتشددين - أكثر من اللازم، وبدون مبرر - يرفضون المناقشة أو الحديث عن بطاقة المرأة أو قيادتها للسيارة، ويعتبرون أن كل ذلك مفسدة وانحلال وقلة حياء، حتى لو لم يتعد الأمر مجرد مناقشة وطرح وجهة نظر يمكن قبولها ويمكن رفضها.

وقد كنت الشاذ الوحيد بينهم، الذي يدخل معهم أحياناً في نقاشات حامية الوطيس عالية النبرة، لدرجة أنني كنت أخرج أحياناً من الجلسة بإصابات ورضوض معنوية تصل إلى حد الخصام لعدة أشهر، وقد يتجاوز الأمر عدة سنوات، إذا لم تصل الأمور إلى الفرقة النهائية التي ليس لها عودة.

هذا «بدوي» متحرر، أصبح الجلوس معه فيه خطورة على جلستنا، وقد يكون على مستقبل أبنائنا ممن يستمعون لمثل هذه النقاشات.

هكذا كان يقول بعض أصدقائي وزملائي ومعارفي، عندما أضعهم أمام الأمر الواقع والإقرار بتطور الحياة والمستقبل، وضرورة أن تأخذ المرأة مكانتها داخل مجتمعنا.

ولم يجدوا ما يردون به عليّ سوى، ماذا يهمنا أن تقود أختك السيارة في الديرة وتحمل والدتك بطاقة الأحوال من أحوال مدينة ينبع البحر، فأقول لهم: ولكن بعضكم بل أكثركم له زوجة عاملة، إما معلمة، أو مديرة مدرسة، أو مسؤولة كبيرة في رئاسة تعليم البنات، أو موظفة في أحد البنوك، ومع ذلك تكابرون برفض الاعتراف بالحقائق. وكانوا يردون علي بصلابة وتجهم بأن الموافقة على استخراج بطاقات أحوال لزوجاتهم أو أمهاتهم أو أخواتهم أمر مستحيل، لكن هذا المستحيل قد تحقق وبعد عشر سنوات من النقاش والقطيعة مع بعضهم. والأكثر سعادة أنني رافقت أمس الأول أكثرهم صلابة في رأيه سابقاً إلى إدارة الأحوال المدنية بجدة، كشاهد على استخراج بطاقة أحوال لزوجته المديرة.

شريحة الساعتين !!

ستظل شركة الاتصالات تصدع رؤوسنا يومياً، بتفوق خدماتها الهاتفية التي تقول إنها تصل إلى المشترك في عقر داره ومنزله وحيث كان، لتقدم له خدماتها المتميزة بسرعة البرق والذي يظل مجرد كلام استهلاكي، دون وجود البديل المنافس الذي يجعل لما تقوله صفة التميز.

ولكي يكون للتفاؤل معناه وأسبابه، أسرد لكم هذه القصة البسيطة لمشترك أراد أن يستبدل بشريحة هاتفه الجوال التالفة شريحة جديدة من أحد فروع الشركة، والتي تقول إنها منتشرة في طول مدينة جدة وعرضها، من أجل أن تكون في خدمة المشترك خلال الأربع والعشرين ساعة يومياً.

وفي مكتب اشتراكات حي النعيم، كان المشترك هناك في يوم من الأسبوع الماضي يسحب رقمه في الطابور الذي كان يحمل الرقم «٥٠»، وكانت حينها الساعة تشير إلى الواحدة ظهراً، لكنه لم يستطع الحصول على الشريحة إلا بعد ساعتين كاملتين، إن لم يكن أكثر من الانتظار الممل الذي كان حينها يتوقف «السِّرَى»، من أجل الاختراق الذي سببه أحد المراجعين من الذين لهم علاقة بأحد الموظفين، حين يستقبله بترحيب شديد وحميمية عالية لا يستقبل بها مراجعاً آخر لا يعرفه، ثم يترك الذي له الأحقية في إنجاز معاملته ويتجه لإنهاء معاملة صديقه. وعندما يحتج أحد المراجعين على هذا الأسلوب غير الحضاري الذي عطل مسار الطابور، يتعلل مدير المكتب بنقص الموظفين في الوقت الذي كان فيه أكثر من موظف يجلسون بعيداً عن كاونتر المراجعة، ينهون إجراءات معاملات من يعرفونهم من الذين استطاعوا الدخول إليهم عن طريق الأبواب الخلفية.

وكاد مراجع آخر – بعد أن ضاقت به الحال وتأكد أن طابور المراجعين يسير سيراً سلحفائياً – أن يستعين بصديقه الموظف الذي لمحه منذ دخوله ولكنه لم يشأ أن يتجاوز بقية المراجعين، إذ كان كل شيء يسير سيراً طبيعياً، لكنه اضطر مجبراً أن يصل إلى صديقه الموظف في ظل هذه الفوضى الضاربة بأطنابها في فرع اشتراكات حي النعيم، لكن ومع الأسف، حدث ذلك في اللحظة التي جاء دوره النظامي للتقدم لموظف الكاونتر للحصول على شريحة جديدة، حيث كانت الساعة حينها قد بلغت الثالثة عصراً.

لا أدري متى نتحضر ونبيع الشريحة في البقالات بعيداً عن حكاية الطابور الذي يبدو أنها سترافقنا إلى قبورنا؟!

صحفي في غرفة الاستيداع.!

ضاعت عليّ الفرصة خلاص.!

بعد أن أوشكت أنا وأمثالي – من عجائز شارع الصحافة – أن نحال إلى غرفة الاستيداع، التي تؤدي في مثل هذه الحالات إلى الاكتئاب والضغط النفسي الذي نهايته معروفة.

وبدون فلسفة زائدة أقول:

ظهر أخيراً نظام المؤسسات الصحافية الذي جاء متأخرا جدا، وبعد أن تحولت إلى «كويتب» من منازلهم .. وبعد أن قُذفتُ بـ«الشلوت» ووجدت نفسي في يوم من الأيام بعيداً عن معشوقتي الصحافة، وأصبحتُ صاحب بقالة صغيرة حقيرة أبيع السكر والشاي وأتحسر على من يزورني من الزملاء، ليستعرض عضلاته أمامي بمواضيعه الصحفية التي نشرت له في ذلك اليوم.

كان الصديق الدكتور فهد العرابي الحارثي قد عزاني ذات ليلة في بيت الطيب محمد سعيد، عندما التفت علي فجأة وأمام جمع الحضور قائلاً: مبروك «يافايدي» نظام الصحافة الجديد الذي كان لي شرف المساهمة فيه في مجلس الشورى، سيكون في صالح أمثالك من الصحفيين الذين لم ينصفهم النظام القديم.

لم أجد ما أرد به على الدكتور فهد في تلك اللحظة غير عتاب مصحوب بمرارة، كونه لم يدعني – على الأقل – عندما دعا بعض زملاء الحرف كمستمعين فقط لما سيكون عليه نظام المؤسسات الصحافية الجديد .. ولو فعل، فقد يسمع مني معلومة من خلال تجربة صحفية ميدانية قد تكون غائبة عن ذهن بقية الزملاء الذين أعترف أنهم يفوقونني معرفة وكفاءة، ولكن على طريقة «شاور من هو أكبر منك وأصغر منك»، فقد أكون أنا الصغير الذي يدلي بمعلومة عن الصحافة قد تكون غير حاضرة في ذهن الزملاء.

على كل حال، لقد سعدت بخروج نظام المؤسسات الصحفية الجديد أخيراً، لكن ليتك تعلم – يا دكتور فهد – أنه لم يعد هذا النظام ينفع «الفايدي»، فقد أصبحت «كويتبا» من منازلهم، ومرتاحا في بعدي عن الصحافة التي ذقت من خلالها الأمرين، ومع ذلك، فإنني أكثر سعادة بالرغم من طعم العلقم الذي في فمي.

إن النظام الجديد، سيستفيد منه زملاء المهنة الجدد الذين أتمنى أن يحقق النظام الجديد كل طموحاتهم، حاضراً ومستقبلاً، وما أنا في الوقت الحاضر إلا واحد من منظومة صحفية كانت يوماً

تستمد عملها الصحفي من الميدان، لكنني لا أتمنى أن يمر جيل الصحافة الجديد بما مرت به أجيالها السابقة، التي كانت دائما تردد المثل القائل «قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق».!!

صعوبة إخراج تصاريح الحج

نظراً للزحام الشديد جداً لطالبي تصاريح الحج على إدارة جوازات جدة، فقد يصعب على البعض من راغبي الحج من الداخل الحصول على هذه التصاريح. ونتيجة لذلك لن يتمكنوا من أداء فريضة الحج هذا العام، بينما يفترض التنبه لهذه النقطة والاستعداد لها ومعالجتها بكل الطرق الممكنة، لكي لا يحدث التلاعب في معاملات استخراج تصاريح الحج.

مثلاً، يقدم أحدهم ملفه إلى موظف شباك الجوازات معتقداً أنه سيعود له بالموافقة على التصريح له بالحج، لكن الملف يعود بعدم الموافقة، بحجة أن المطوف الذي اتفق معه مكتمل العدد، بعد أن رفض كمبيوتر الجوازات ملفه وإكمال الإجراءات عليه.

وآخر، يسجلون له أفراد عائلته في تصريح الحج، لكن يسقط اسم أحدهم من التصريح، وعندما يعود إليهم للمراجعة بغرض تصحيح الخطأ، يجد صعوبة في إمكانية ذلك. فيضطر أمام خيارين لا ثالث لهما، إما إلغاء فكرة الحج، أو التخلي عن من سقط اسمه من أفراد العائلة، ولابد أن يتخلف عن أداء الفريضة، لكن كيف السبيل إلى ذلك وقد جاء من مدينة أخرى بعيدة عن مدينة جدة ويصعب عودته إليها وحيداً؟ وماذا يكون عليه الأمر إذا كان من سقط اسمه من تصريح الحج امرأة؟ هل يكمل عائلها أداء فريضة الحج أم يؤجلها مضطراً إلى سنة أخرى؟.

أما الأخطاء والملاحظات الأخرى التي تحدث نتيجة هذا الزحام الشديد في إدارة جوازات جدة، والمصاحبة لكل عمل محدد بمدة كمدة تصاريح الحج، فحدث ولا حرج، لدرجة دفعت البعض للقول أن تصاريح الحج تحولت إلى قضية صعبة، ومن صعوبتها أن تلعب فيها أحياناً «الواسطة»، و«أشياء أخرى» دوراً كبيراً، ولن أقول لكم كيف تحول اسم أحد الذين طالبوا بتصريح للحج عن طريق كمبيوتر الجوازات إلى اسم آخر مختلف كلياً، وهو دكتور يحمل شهادة علمية ولم يجد وسيلة بعد الإرهاق والتعب الذي تعرض له عند إدخال ملفه في المرة الأولى، سوى إلغاء فكرة الحج وتأجيلها إلى عام قادم وهو لا يدري ماذا يخبئ له القدر. وهل سيطول به العمر إلى العام القادم ليؤدي فريضته، وهل يكون على رأس عمله أم أن عقده سينتهي ويعود إلى بلده، دون أن يحقق أمنيته التي يتمنى تحقيقها كل مسلم كتب له أن يعمل في هذه الديار المقدسة!

والى لقاء ما بعد الحج وكل عام وانتم بخير.

عامل نظافة سعودي !!

قلت مازحا لشاب عاطل بدون شهادة: هل تشتغل عامل نظافة؟

قال: احترم نفسك!!

قلت: لماذا؟

قال: أقول أنت قليل أدب!

ولابد أن أكون كذلك بالفعل، مادام أنني تجرأت وطرحت مثل هذا السؤال على أي شاب سعودي عاطل عن العمل، حتى لو لم يحمل من شهادة سوى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

ثم أن تكون عامل نظافة سعودياً؟!

طبعاً لن يحدث ذلك ولا «في المشمش»، ولا في أحلام كأحلام المجانين، لكن ليس على الله ببعيد أن نكحل عيوننا يوماً بعامل نظافة سعودي، ينظف الشوارع ويسقي أشجار الأرصفة، ليتأكد حلمنا بأن النهضة الحقيقية – وليست الاستهلاكية – قادمة.. وأعتقد أن انتظارنا لذلك اليوم سيطول بطول انتظارنا لتحرير القدس.

وحتى لو افترضنا أن هذا سيحدث يوما ما، فلا أعتقد أن الأداء سيكون كأداء عمال النظافة غير السعوديين، الذين ينظفون لنا شوارعنا وأزقتنا وأرصفتنا خلال الأربع والعشرين ساعة. وتصور – مجرد تصور – أن هذه النظافة أسندت يوماً إلى أياد وطنية، فكيف سيكون عليه الحال.؟

بالطبع، ستتحول الشوارع إلى «شربه» وإلى أكوام من المخلفات، وأرتال من النفايات، وطبقات من الأتربة و الغبار. يكدح العامل البنجلاديشي صباحاً ومساء حرصاً على عمله في تنظيف شوارع المدينة، بينما المواطن السعودي يرمي بمخلفات منزله من البلكونة وعلب البيبسي وقشر الفستق من فتحة سيارته على الطريق.

ولا يكتفي بذلك، بل ويتشدق في كل مكان أن النظافة ليست في المستوى، وأن عمال النظافة مقصرون في واجبهم، وأن سيارة البلدية لم تفرغ صندوق النفايات المليء أمام منزله منذ عدة أيام.

ما أحلانا في الكلام، أما الفعل فلا شيء أبداً، فالموظف يتأخر عن عمله، والمراجع تتعطل أعماله، والمدير لديه أكثر من سكرتير، والساعي لديه أكثر من سائق، والمدرِّسة لديها أكثر من خادمة.

كل الذي نجيده هو «المنجهة»، والشراء الاستهلاكي، «والتفريخ»، والتباهي على بعضنا البعض بعدد قصورنا وفللنا وعماراتنا وسياراتنا وخدمنا وحشمنا ومركزنا الاجتماعي والمالي،

حتى الكرم الأصيل ذهب مع من ذهب من شبابنا الذين توفاهم الله. لم يعد لنا ما نتميز به سوى المظاهر الكاذبة التي «لا تودي ولا تجيب». ولن نتقدم أو نُعد في مصاف الدول التي تعتمد على أبنائها،إذا لم نجد السعودي يوماً ممسكاً بالمكنسة ينظف الشارع، والآخر يقود سيارة النظافة، والثالث في الورشة يصلح سيارة الزبون، والرابع في المخرطة ينشر ألواح الخشب لتصنيع الشبابيك والأبواب، والخامس يده مغروسة في عجينة الدقيق كعامل في الفرن.

كلام استوحيته ذات صباح جمعة من عمال النظافة الذين كانوا يتحركون أمامي بهمة ونشاط والعرق يتصبب من جباههم، لتفريغ صناديق الزبالة الضخمة داخل سيارة البلدية، بينما كل السعوديين في تلك اللحظة يغطون في سبات عميق، إلا واحداً رأيته جاء ليرمي كيس زبالته بجوار الصندوق.

عبدالرحمن المنصور .. عصي الآه!

لست في حاجة إلى أن يذكرني الأديب وصديق كبار الأدباء الأستاذ محمد القشعمي، بموعد احتفاء الجزيرة بذلك الشاعر والأديب الكبير عبدالرحمن المنصور زميل عبدالكريم الجهيمان، وعابد خزندار، في «رحلة» طالت قليلاً قبل حوالى أربعين عاماً، ولكنها عرّفتنا كيف يصمد الأديب، عندما يتعرض أحياناً لنوع من المحن والخطوب.

ومن يكتب ذلك الشعر الراقي الحديث في مرحلة الخمسينيات وفي جريدة الفجر الجديد التي يرأس تحريرها زميل «الرحلة» يوسف الشيخ يعقوب، كاف لكي يتربع على قلوب جيل كامل يبحث الآن بشمعة عن شعر يوازي شعر وقصائد عبدالرحمن المنصور، فلا يجد غير الجيفة والنطيحة وما أكل السبع، من شعر معظمه يصيبك بالغثيان والقرف، إذا ما قرأت بيتاً واحداً منه صرفت النظر عن قراءة بقية أبياته.

ومنذ أن تعرفت على هذا الشاعر والأديب الكبير عبدالرحمن المنصور في ذلك اللقاء الحميم الذي جمع المنصور بالجهيمان، بعد عودتهما من تلك الرحلة الطويلة والصمود. المنصور الذي حفر الصخر بأظافره مصراً على أن يمهد الطريق للجيل الذي يأتي بعده ليجد الطريق سالكاً وممهداً.

وما جيل الشاعر عبدالرحمن المنصور، إلا جيل التضحية والعطاء الذي لم ينتظر المقابل، والذي دفع ثمنا باهظا. ومع ذلك لم يشك أو يتذمر، بل رأيته شامخاً وكبيراً وفيه سمات من إباء وكبرياء.

شاعر لم يقل الآه يوماً، ولم تسمع منه كلمة تذمر في مسيرة حياته - رغم صعوبتها - وهو الذي يفخر وتفخر معه كل الأجيال التي أتت بعده، أنه كان موظفاً كبيراً في وزارة العمل والعمال. وقد ساهم في وضع أنظمة عمالية عديدة ومتطورة، من بينها نظام العمل والعمال الحالي، بالإضافة إلى شاعريته التي ما إن تقرأ له قصيدة حتى تطلب مزيداً من القصائد التي أبدع هذا الشاعر الكبير في نظمها، عندما كان الشعراء الفحول يعدون على أصابع اليد الواحدة، إن لم يكن اقل.

ويكفي عبدالرحمن المنصور، أنه صاحب قاموس شعري متفرد ومتفوق على أقرانه من شعراء جيله، وهو نفسه عبدالرحمن المنصور الذي حرص من الجانب الآخر على أن تكون كل عائلته الصغيرة متفوقة. ففيها الدكتورة، والمهندس، ورجل الأعمال الناجح، وقبل هذا وذاك زوجة كريمة مناضلة استطاعت بحنكتها وسعة تفكيرها أن تقود دفة سفينة العائلة باقتدار منقطع النظير، أثناء غربة رفيق دربها - المنصور - الطويلة إلى أن عاد ليلتئم شمل العائلة من جديد.

أطال الله في عمره، فقد أثرى - خلال مسيرة حياته - الحركة الأدبية والثقافية والاجتماعية بكل شجاعة وصمود الرجال الكبار.

عدد العواميد ..يدخلك الجامعة !!

الضغوط النفسية التي تعرض لها طلبة وطالبات الثانوية العامة هذا العام تفوق مثيلاتها من الأعوام السابقة، بسبب تصعيد النسب في كل عام عن العام الذي قبله، لدرجة يصبح فيها الدخول إلى الكليات والجامعات أمراً يكاد يكون مستحيلاً إذا لم تكن نسبتك عالية جداً، ثم عليك أن تجتاز مقابلة لجنة القبول التي تطرح عليك سؤالاً بعيداً عن المنهج الذي درسته من نوع: كم عدد عواميد النور في طريق المدينة من ميدان البيعة إلى المطار؟

كان هذا السؤال الذي يشبه اللغز في الأعوام الماضية، أما هذا العام فأتوقع أن تأتي الأسئلة على شكل روشتات الطبيب، الذي لا يعرف قراءة خطه في الروشتة سوى الصيدلي في الصيدلية.

مقدمة ذلك جاءت من أسئلة الاختبار التعجيزية التي تدل على عدم الرغبة في نجاح أحد، لكي لا يتجه الطالب أو الطالبة إلى الجامعة أو كليات التربية، مما يضطرهم عندها إلى اللجوء إلى المقابلة الشخصية التي لا مفر من طرح الأسئلة إياها، والتي تجعل الدخول إلى الجامعة أو الكلية محتاجاً إلى وجود اسمه في كتاب «جينيس» الشهير في المعلومات العامة.

طبعاً، سيزداد عدد القابعين و القابعات من خريجي وخريجات الثانوية العامة في منازلهم هذا العام، وستزداد نسبة المتسكعين والمتسكعات، وسيرتفع عدد الحوادث والمعاكسات، وستختل التركيبة الأسرية من جراء عجز رب الأسرة عن الصرف على أبناء وبنات كان يأمل يوما في إكمال تعليمهم، لمساعدته بعد تخرجهم على ظروف الحياة المعيشية أو على الأقل يستقلون بذاتهم، وإذا به يكتشف أنهم عبء عليه ولابد من الصرف عليهم، أو تركهم للاحتكاك بأقران السوء والمتسكعين في الشوارع وعلى المقاهي إلى منتصف الليل. والله يعلم كيف ستكون حالته وهو يعود إلى منزله ويدخل متسللاً إلى فراشه محاولاً أن لا يراه أحد.

وتعالوا فقط، لنحصي عدد الذين راجعوا عيادات الأطباء النفسانيين في فترة الامتحانات من جراء الضغوط النفسية، رغبة في الحصول على معدل مرتفع فوق التسعين، إذا لم يكن أكثر. ومع ذلك يوجد في المنازل ممن يحمل مثل هذه النسب ويقبع في بيت أبيه من العام الدراسي الماضي و لا يعرف ماذا يفعل؟ وكيف سيكون الحال والعدد يرتفع مضاعفاً هذا العام لمن تُسد في وجوههم أبواب الجامعات والكليات، مهما كانت نسبتهم مرتفعة؟

وحتى حين يضعون العقدة في المنشار ويسألون الطالب أو الطالبة : كم عدد عواميد الحرم؟ فهم

يتركون السؤال دون توضيح للطالب أو الطالبة، هل المقصود بالسؤال عواميد الحرم المكي أم الحرم النبوي؟

عقاب أسوأ من ذنب!!

هذا الخبر على ذمة مندوب جريدة «الوطن» في الدمام، والذي لخصه في صدور قرار بإعفاء مديرة مدرسة ثانوية من منصبها الإداري وتحويلها إلى معلمة، بعد أن قررت اللجنة المشكلة من مديرة التوجيه التربوي ومحققات إداريات أخريات، أن المديرة تطاولت بالشتم والتجريح بحق معلمة أخرى تعمل في المدرسة نفسها، وقد أوصت اللجنة بتحويل المديرة الشتامة إلى معلمة!!

هنا، ليس لي اعتراض لا على المديرة ولا على المعلمة ولا على اللجنة المشكلة، بل اعتراضي الوحيد على تحويل المديرة الشتامة إلى معلمة. وكأننا كلما أردنا تأديب أو تقويم سلوك أحد قذفنا به إلى فصول الطلبة والطالبات، غير مبالين بما سيكون عليه وضع هذه المعلمة وغيرها ممن لا يصلحون أصلاً لإدارة مدرسة، فما بالكم بالتدريس لجيل يتطلع يوماً إلى تعليم خال من معلمين ومعلمات، أقل ما في قاموسهم من شتم وتقريع هو: «روحي يا بنت يا .. جيبي ولي أمرك».

صدقوني أن كل من مر عليهم قرار هذه المديرة الشتامة وقرأه، لابد أنه ضرب أخماساً في أسداس، وشد شعر رأسه وسأل سؤالاً غير بريء من نوع: كيف يمكن أن تعاقب مديرة - شتمت معلمة أخرى وجرحتها - بتحويلها إلى معلمة.؟ وكأن العملية العلمية والتربوية محتاجة إلى مزيد من الخلل العلمي والتربوي الذي ليس عليه من مزيد، بعد أن اختلط الحابل بالنابل. ولم نعد نسمع غير مديرة ضربت معلمة، ومعلمة ضربت طالبة، ومدير مدرسة تخانق مع مدرس، ومدرس شَوْحَطَ طالباً. أما وزارة المعارف ورئاسة تعليم البنات فتتفرجان على مسرحية «مدرسة المشاغبين» المؤلفة منذ ثلاثين عاماً.

ولا يسعني في هذه العجالة غير أن أطلب من الله العلي القدير أن يصلح من حال خريجات التربية والتعليم في قادم الأيام انه سميع مجيب.

يبدو أن المقابلات الشخصية والاختبارات التحريرية، غدت موضة قديمة مهما كانت نسبتك مرتفعة. وقد تفتقت ذهنية بعض مسؤولات كلية التربية للبنات بجدة أخيراً عن طريقة مبتكرة جديدة وحديثة، يمكن بموجبها «زحلقة» الطالبة وإعادة ملفها لها، دون أن يكون هناك شيء اسمه «اشهدوا عليه».

هذا بالضبط ما حدث لبعض الطالبات بكلية البنات بجدة – القسم الأدبي – عندما جئن يوم الإثنين الماضي – حسب ما هو مسجل في جدولهن، بعد استلام ملفات قبولهن ونزول أسمائهن في الجريدة – لكن فراشة الكلية «خالة خديجة»، تصدت لهن أمام بوابة الكلية الخارجية ومنعتهن من الدخول، ماعدا من كانت منهن طالبة أصلاً في الكلية ولديها اختبار دور ثاني.

وباءت كل المحاولات والرجاءات في إقناع «خالة خديجة» بدخول الطالبات المستجدات بالفشل الذريع. وحسمت أمرها في النهاية وقالت لكل طالبات «النسب» أن يراجعن يوم السبت بدلاً من اليوم الاثنين!

وكانت الطامة الكبرى، حينما رجعن يوم السبت ليجدن أن موعد الاختبار التحريري – الذي كان مقرراً له يوم الثلاثاء – قد فات على بعضهن ولم يبق إلا يوم السبت الذي عدن فيه لإجراء الاختبار التحريري، ولكن لم يجدن إلا اختبار المقابلة الشخصية الذي حتى لو نجحن فيه فسوف يكون «كعدمه»، لأن الاختبار التحريري قد فاتهن، وذلك بفضل تعليمات «خالة خديجة» التي يفترض أن لا تُعطى لها أي تعليمات شفهية. وأن تكون مثل هذه التعليمات والمواعيد مكتوبة ومسجلة ومثبتة على لوحة الإعلانات خارج بوابة مبنى كلية الآداب، لتطلع عليه كل طالبة جديدة، بدلاً من هذه الأوامر الشفهية التي أعطيت «للدادة»، وضاع بسببها مستقبل العديد من الطالبات اللاتي لم يقبل احتجاجهن، وإنما وصفت بعضهن – عند المراجعة – بأنهن قليلات أدب، وطويلات ألسن، ثم قُذف بملفاتهن في وجوههن، ليعدن كسيرات إلى بيوتهن يسحبن أذيال الخيبة، إلا من وجدت «واسطة». فإن كانت واسطتها من الدرجة الأولى قبلت، ومن كانت واسطتها «مشي حالك» فعليها أن تنتظر الفرج، لكن المأساة لمن لا واسطة لها أصلاً، وعلى مثلها – مهما كانت نسبتها عالية – أن تسلم أمرها لله وتنام في حضن أمها، وتنسى أن لها مستقبلاً في الكلية أو الجامعة، بعد أن أقفلت الأبواب في وجهها.

وكون الحظ العاثر قد جعل ابنتي – والحاصلة على نسبة ٩٤٪ – من بين هؤلاء الطالبات اللاتي

«زحلقتهن» الخالة خديجة بالموعد الجديد، إلا أنني أحاول أن أجد لها فرصة في مكان آخر، رغم الختم الذي يحمل كلمة «سجلت» والجائم على الشهادة من الخلف، والذي سيعوق قبولها في أي مكان آخر.

ومازال قلبي يتقطع حسرة على من ضاع مستقبلهن، نتيجة اجتهادات فراشة تلقت تعليمات شفهية قد تكون نقلتها خطأ بحسن نية، أو تكون العملية مقصودة من المسؤولات رغبة في التقليل من عدد المقبولات. فمبروك لهن ما فعلنه تجاه جيل المستقبل من إحباط ربما لا يشمل بناتهن وبنات الأقرباء من مسؤولات في الكلية، حتى بنسبهن المتدنية.

وهاأنا جالس بانتظار الردود الجاهزة التي اعتدت عليها من نوع «هذا غير صحيح .. وما قاله الكاتب لا يمت للحقيقة بصِلة».

عندما «تكهرب الجو»!!

.. يا الله.

أين الكلام الجميل مع زوجتك الجالسة بجوارك وأنت تقود سيارتك في طريقك إلى نزهة بريئة على الكورنيش؟!

صدمني السؤال الذي لم أجد له إجابة .. وتبعثر في فضاء السيارة الداخلي مع مكيف الهواء .. ثم بدرت مني ابتسامة صفراء .. قلت في أعقابها: لا عليكم اتركوني وشأني، وقد بدأت حينها أسبح في ملكوت العمائر الشاهقة، والمنتزهات المتلألئة، وطابور السيارات الممتد على مدى النظر .. لكنني بالكاد رأيت البحر من خلال ارتداد ضيق بين سور ومنتزه آخر لا تقل مساحة كل منهما طولاً عن كيلو متر كامل إلى الشمال.

– نفرش ونجلس هنا؟

– هنا فين «يا حرمه»؟! هل نزاحم الناس؟ نضايقهم؟ سيفتكرون أننا نتلصص على خصوصياتهم.

وتكهرب الجو وصفقت باب السيارة عامداً متعمداً حتى لا أصفق أحداً آخر!! وهذه التي بجواري لم يكن لها ذنب في إفساد شيء سوى أنها شجعتني على هذه النزهة كـ«تغيير جو»، بدلاً من أن نموت اختناقاً في الشقة الملوث هواؤها من كثرة استعمالنا لأدوات النظافة والمبيدات الحشرية، التي كانت بالتأكيد ستقصف أعمارنا في يوم ما. على رأي الدكتورة مريم نور.

أخيراً، انحشرنا بين عائلتين كضرورة اجتماعية، ومحاولة يائسة للاستمتاع بالبحر، ولا شيء آخر غير البحر، وفي الموقع نفسه الذي نذكره، عندما تزوجنا وجئنا إليه لمناجاة بعضنا أمام أمواج البحر، «اطمئنوا فالمناجاة كانت في الموضوع نفسه الذي لم يحسم حول تأثيث الشقة وتوابعها»، وانقض علينا رجل من الهيئة كان شاكا في أمرنا، وأنه قد يكون اختلاء، وكان سيحملنا في «جيمس» الهيئة لو لم تنقذنا بطاقة العائلة.

ومع ذلك، لم نشعر – ونحن بين العائلتين – بأي خصوصية، لا لنا ولا للآخرين. وقد اضطرت نساؤهم إلى أن يشعرننا بأننا نضايقهن عن طريق التستر من جديد بالمسافع والعباءات. وفعلت نساؤنا الشيء نفسه، ثم اضطررنا – في النهاية – أن نلم أغراضنا من فرش و«ترامس» شاي وقهوة، وان أقذف بها إلى شنطة السيارة و«اشخط» في «الولية» قائلاً «يا الله على دارنا قبل ما يقل مقدارنا يا بنت الحلال». وحين تسمح الظروف بمساحة أكبر على البحر، ليمارس المتنزهون أمثالنا خصوصيتهم

العائلية في «التمشية» على الكورنيش سنعود، إلا إذا أراد من أراد أن تكون النزهة مشفوعة بدفع الغالي والثمين لإحدى الاستراحات والمنتزهات أو الشقق والفنادق على الكورنيش، فهذا أمر آخر «ما نقدرش عليه»!!

وبالمناسبة، معذرة لاستعمال كلمتي «الحرمة،والولية» هنا في سياق الموضوع، أما في سياق الواقع فمحسوبكم «بدوي متحضر» قد يمقت استعمال هذه الكلمات ومثيلاتها.

بالتأكيد نحن نعيش زمناً «أغبرا» غير زماننا، رغم برودة المكيفات وركوب السيارات الفارهة والتدثر بألحفة وبطانيات، كنا نعتقد في يوم ما أنها من الأحلام مستحيلة التحقيق.

والدليل على ذلك أن الابنة الصغيرة «آلاء» -مفعوصة الرقبة -فاجأتني يوم الثلاثاء الماضي ونحن بالقرب من بوابة مدرستها الخاصة بتلك العبارة: «فضحتني يا بابا»، مما جعلني أستدير إليها في المقعد الخلفي، مستفسراً عن أسباب هذه الفضيحة التي أوجزتها في أن أقف بها بعيداً عن بوابة المدرسة وهي تركب هذه السيارة «الكورولا» الشعبية الصغيرة. ولم أجد ما أرد به عليها في ذلك الصباح، خاصة وهي مُقْدمة على اختبار السنة الثالثة إبتدائي، غير الذهول والإصرار على إنزالها أمام البوابة وليراها من يراها من زميلاتها. وقد قالت قبل أن تنزل ساخرة أو جادة: أنا بنت الفايدي الصحفي.. ولم أجد ما أرد به عليها غير «طز فيه».

في الطريق إلى مدرسة أختها الكبيرة استفزتني مرة أخرى بالانضمام، بأنه يجب أن أوصلها بسيارة تليق بمقامها .. كأختها «إنتظار».

وأعدت عليها نفس الجملة التي قلتها لأختها، وهددت أنه إذا لم يقلعا عن هذه النفخة الكذابة لأشترين وانيت «أبو عراوي» وأوصلهما به يومياً إلى المدرسة.

قالت إنتظار: لا الله يخليك يكفي أنني الآن بـ«الكورلا»، وأقول لزميلاتي إن سيارتنا الفارهة تصلح في الورشة!! ثم يا بابا أنت عندك سيارة «شبيح» صغيرة .. لماذا لا تركبنا فيها يومياً قلت: هذه «الشبيح» غير دائمة لنا، وقد أبيعها غداً، أما الدائمة لنا -وعلى مستوانا - فهي هذه السيارة «الكورلا» العزيزة على نفسي والتي ما زالت تخدمنا منذ إحدى عشرة سنة.

نزلت وهي غير مقتنعة بكلامي ومتذمرة .. وصدى عباراتها المفجعة يرن في أذني، بأن كل البنات «يفشرن» بأنهن يركبن سيارات فارهة حتى أن منهن من يوصلها ولي أمرها بـ«دباب» ذي الأربعة كفرات.

إنه لجيل الضياع الذي يكاد أن يضيعنا معه .. والمصيبة أنه لا يعلم أن زمن الطفرة قد ولى .. وبدأنا في ربط الأحزمة.

قالها لي هكذا «علي بلاطة»:

– أنت حاقد على التجار وأصحاب رؤوس الأموال والأثرياء ومن في حكمهم.

– قلت : هل هذا استنتاجك الخاص، أو عن معرفة، أو من خلال إعطاء أذنك للآخرين؟؟

فكر قليلاً ثم قال:

– قل استنتاجاً .. قل معرفة، قل إنني سمعت ذلك من الآخرين، المهم اعترف لي الآن بأن كل ما قلته لك صحيح!

– قلت: نعم .. صحيح .. وأبصم لك بالعشرة.. إذا كان ذلك الأمر سيريحك ويرد على اتهاماتك ويشبع فضولك.

ثم سألني إن كان ذلك كذلك، فهل الحقد هذا نتيجة موقف معين تعرضت له؟ أم مسألة عامة يتداولها الآخرون وأنت تبنيتها ؟ أم هو قديم أم جديد؟

– منذ متى لاحظت هذه «النقيصة» عليّ؟

– يا أخي من كتاباتك القديمة والجديدة وقبل أن أتعرف عليك شخصياً.

– وبعد أن تعرفت عليّ شخصياً، ماذا عرفت إضافة إلى صفة الحقد؟

– دفاعك المستميت عن فئة البسطاء، والفقراء، وذوي الدخل المحدود، وكأن هؤلاء التجار «عزرائيل» الذي يقبض الأرواح ولا يترك لأحد أن يستنشق نسمة الهواء.

واحترت أن اقنع صاحبي –صاحب المنشأة الكبيرة –ببراءتي ووجهة نظري، وهو يقول:

– يا أخي، ليس هذا رأيي وإنما هو رأي الكثيرين أمثالي من التجار، وحتى تصدق قبل أن تدخل عليّ في مكتبي هذا، كان قبل قليل هنا اثنان من الوجهاء، وكنا نتحدث جميعاً عن بعض الكتاب والصحفيين الذين يناقشون ويكتبون عن بعض المشاكل الاجتماعية. وعندما ورد اسمك لم ينكروا عليك حدة قلمك –وهو مطلوب – ولكنهم اجمعوا على أن في كتاباتك شيئاً من التذمر والحقد على التجار ورجال الأعمال والأثرياء وأصحاب القصور، رغم أنهم يقولون إنك مبسوط وتملك عمارة ولديك سيارة «شبح»، فلماذا هذه الحملة المستهدفة على التجار وأصحاب رؤوس الأموال.؟

وحتى لا يستفيض كثيراً في اتهاماته، اختصرت عليه الطريق وكان لدي دليل حاضر، عندما قدمت إليه فاتورة عالية الثمن وسطني صاحبها لتخفيض قيمتها منه، لكنه علق على ذلك قائلاً:



– هذه أسعارنا ومن لا يقبلها عليه التوجه لغيرنا، ونحن في زمن السوق الحر.

– لا يا سيدي، لابد أن تكونوا معقولين في أسعاركم. ومن يريد أن يتاجر في مهنة كهذه، لابد أن يكون إنساناً وتاجراً في نفس الوقت.. فرد مبتسماً:

– حافظ على كلماتك!

– قلت مستدركاً ومعتذراً:

– لا أقصدك بالاسم، ولكني اقصد كل من يتاجر في هذه المهنة. وليتك تسحب أنت اتهامك لي بالحقد وتحويله إلى حماس زائد، رغبة في أن تكونوا معقولين في أسعاركم.

وانتهينا أخيراً إلى التصالح بتخفيض قيمة الفاتورة وتمنيت عليه في نهايتها صادقاً أن تكون أرباحهم في نهاية العام، بدلاً من مائة في المائة ،خمسين في المائة، من أجل عيون البسطاء والفقراء وذوي الدخل المحدود يا رجل الأعمال العزيز.

قرصة ناموسة تكلف 500 ريال!!

لم يعد انتشار الجراثيم والقاذورات في شوارع وطرقات مدينة جدة أمراً غريباً، بل أصبحت الغرابة في حد ذاتها، أن لا تشاهد ذلك أو تراه، أو تمر به ، أو تغوص فيه برجليك ويديك.

وقد تحول سوء النظافة إلى سمة من سمات مدينة جدة والتي تحولت إلى ظاهرة لم تعد تخطئها العين، ولا حاسة الشم، بل الأكثر من ذلك، اقتحام تلك الأوبئة والقاذورات مقر سكناك، حتى لو أغلقت جميع المنافذ من أبواب وشبابيك، مما يجعلك تقبل بأن يتحول منزلك إلى نوع من ترسانة السجن الاختياري المحكم الإغلاق بالكتل الأسمنتية، بدلاً من ترك النوافذ والأبواب مفتوحة آملاً في نسمة هواء منعشة، والتي سرعان ما تكتشف أنها ليست نسمات هواء ولا يحزنون، وإنما هي كمية من الغزو الوبائي على شكل روائح كريهة وأسراب من الفئران والناموس ذات الأحجام المختلفة، التي تميزت بها مدينة جدة عن سائر المدن الأخرى.

وقد أسهمت هذه الظاهرة في تحسين دخل المستشفيات الخاصة والتي أسعدها ما آلت إليه مدينة جدة من حالة مناخية وبيئية غاية في السوء، أدت إلى العديد من الأمراض المنتشرة، والتي جعلت الكبير والصغير في حالة مراجعة ودفع دائمة لهذه المستشفيات، للعلاج والاستشفاء من أمراض وبائية جاءت عن طريق قرصة ناموسة، أو انقضاض فيروس وجد – هو وبقية «ربعه» – البيئة المثالية للتوالد والتكاثر، الذي كان الفضل فيه لسوء نظافة المدينة التي تزداد تلوثاً يوماً بعد يوم.

ولا يسعني بهذه المناسبة، إلا أن انقل لكم حالة من ضمن كثير من الحالات التي شاهدتها ولمستها من تأثير سوء الحالة البيئية على السكان. فقد دفع هذا الوضع مواطناً إلى الإسراع مرعوباً بحمل طفله الصغير إلى أحد المستشفيات الخاصة القريبة من منزله، بعد أن انتفخت جبهته، واحمرت وجنتاه فجأة. وكانت النتيجة في نهاية الأمر دفعه لخمسمائة ريال، «ريال ينطح ريال»، أجرة كشف وتحاليل وأشعة ودواء.

وقد شخصت الحالة أن الصغير قد تعرض لقرصة ناموسة. وقال الطبيب المعالج في نهاية الأمر لوالد الصغير: عليك بالحرص على عدم فتح النوافذ والأبواب وإحكام قفلها، حتى لا يتعرض صغارك الآخرون في المرة المقبلة لمثل ما تعرض له هذا الصغير. فالمنطقة من حواليك يبدو أنها شديدة الوباء البيئي.

السؤال هو : من سيدفع قيمة قرصة الناموسة للطفل الصغير البلدية، أم وزارة الصحة، أم شركة

النظافة؟ وإذا لم يكن أحد من هؤلاء هو المتسبب، فهل يتوجه والد الطفل مع وفد من أهله إلى «قبائل» الناموس مطالبا بالتعويض؟ أم أن على سكان مدينة جدة «التأمين» على أنفسهم وأطفالهم من خراطيم الناموس؟

«عشنا وشفنا» !!

كافل اليتيم!!

هذا الرجل أعرفه تماماً ويتفطر قلبي عليه الآن وهو مسجي ونائم على السرير الأبيض يئن من الألم ، شفاه الله.

نشأ عصامياً وحفر الصخر بأظافره، لكي يحصل على قوت يومه في تلك الزمانات البعيدة جداً، التي كان يموت فيها الناس من الجوع والعطش وشظف العيش وقسوة الحياة.

عمل بحاراً .. وراعياً .. وجانياً للنخل .. ومن القروش القليلة التي استطاع توفيرها اشترى له سفينة تجوب البحر، وفتح له دكاناً صغيراً يبيع فيه السكر والشاي والدقيق والبن والهيل، ثم يقوم بإقراض كل هذه الأشياء على البحارة «على الحساب» إلى أن يعودوا من غربتهم التي تستمر عدة أشهر في أعماق البحار، ثم يسددون له الدين وهكذا تسير الحياة بكل صعوبتها وشقائها.

بعد سنوات، كبر الدكان، وتوسعت السفينة –القطيرة– وانتقل بتجارته من قريته إلى المدينة الأكبر، وافتتح له دكاناً اكبر واتجه إلى تجارة الغنم والمواشي والسمن والزيت السوداني. وعندما تحسنت الأحوال ووصل إلى ما وصل إليه من جاه وثراء، أشرع أبواب منزله لكل الضيوف والفقراء من الذين يعرفهم ويعرفون كيف بدأ حياته من الصفر.. يأكلون ويشربون وينامون في منزله إلى أن يحصل الواحد منهم على عمل أو مصدر رزق، باعتبارهم قادمين من القرية إلى المدينة وليس لهم أحد سواه.

لم أذكر طوال الأربعين عاماً أن خلا مجلسه قط من الفقراء والمساكين الذين يشاركونه سفرة طعامه يومياً، ومن كل الجنسيات. وكان يتضايق لو نقص عددهم أحياناً لظروف سفر أو مرض أو معاودة الأهل في «الديرة».

وبعيني رأيت قدور الأرز واللحم تتعاقب طوال أشهر رمضان من كل عام إلى السجن، لتوزيعها على المساجين كعادة الكثير من المحسنين الذين يبحثون عن الأجر والثواب.

هذا الرجل الذي كفلني يتيماً هو الشيخ «مهنا القوفي» .. رباني وعلمني واحتضنني يتيماً، ثم أشرع لي كل الأبواب للاختيار، إما الخروج والاستقلال بنفسي أو الاستمرار معه، لكنني اخترت الاعتماد على نفسي، بعد أن زرع فيَّ بذور الرجولة التي كانت قاسية فعلاً، ولكنها حلوة ولذيذة، عندما تصنع أيدي الرجال الكبار البيضاء رجالاً آخرين بلغة «كفالة اليتيم»، دون أن ينتظر مقابلا إلا الأجر والثواب عند الله.

أنموذج من المحسنين الذين يعطون باليمين ما لا تعرف الشمال .. أكثر الله من أمثالهم.



لا أستطيع أن أجد مبرراً واحداً – ولو بسيطاً – لهذه «الزفة»، التي تقوم بها بعض الصحف وكتابها بين الحين والآخر، كلما صدر قرار بتعيين مدير أو مسؤول جديد في موقع ما، ألا إنها زفة تزلفية كلها نفاق ورياء، خاصة إذا كانت إدارة هذا المدير أو المسؤول المعين حديثاً ذات خدمات آنية تهدف منها الصحيفة، أو كتابها إلى التقرب إلى هذا المسؤول، لتكون قنوات الاتصال معه مفتوحة منذ البداية، إلا إذا افترضنا حسن النية، بعدم حصولهم على مكاسب خاصة.

والطريقة التسلقية هذه، وإن كانت مكشوفة، إلا أنها لا تخدم الكاتب ولا الصحفي ولا الجريدة .. ولا حتى هذا المسؤول أو المدير على المدى الطويل، لأن العبرة في النهاية بالنتائج الملموسة لما يقدمه من عمل جيد.

وقد تعودنا في الصحافة على هذه «الزفات»، لكن ما ذنب القارئ الذي يدفع في المطبوعة ريالين، ليفاجأ كلما تعين مسؤول أو مدير لجهاز خدماتي يتعلق عمله بأكبر شريحة من الناس، بهذه «المناشيتات المتزلفة» الطويلة العريضة عما يريد أن يفعله هذا المسؤول، حتى قبل أن يجلس على كرسيه أو يتعرف على ظروف إدارته والموظفين فيها.

مسكين هذا القارئ.

والأكثر منه، ذلك المسؤول الآخر الذي يتعين ويصدر قراره ولا ينشر عنه خبر حتى على سبيل المجاملة، لأن هؤلاء المتزلفين لا تهمهم إدارته، وليست من الإدارات التي يمكن مجاملتها أو كتابة خبر أو تحقيق عنها، بغرض الوصول إلى التقرب إلى المسؤول فيها، سواء كان ذلك بقصد بريء أو غير بريء.

وبدون أن يكون لهؤلاء ذرة من حياء. فهم يمارسون هذه الأفعال ممارسة من يأكل ويشرب ويلتقي بأصدقائه يومياً، ولا يتورعون عن إيجاد المبررات لكل من يلومهم أو يعتب عليهم بأن هذا «سبق صحفي» ولابد من مواكبته وإبرازه.

منذ ترك منصبه قبل حوالى ثماني سنوات وما زالت سيرته العطرة في الأذهان مثل طيب المسك.

ولو لم يكن يحمل من الحسنات والصفات الفاضلة والكريمة غير صفة التواضع لكفاه ذلك .. وهو المسؤول الذي ترك منصبه، والكرسي الدوار، منذ سنوات طويلة، ومع ذلك ما إن تأتي سيرته حتى تتدفق الكلمات من على السنة محبيه شلالات من المحبة والتقدير والاحترام.

كان يصل إلى مكتبه مثل بندول ساعة «بيج بن» وقبل موظفيه، ويخرج بعدهم .. ولا ينسف مشلحة على كتفه إلا لوساطة خير مقتنع بها أو لما يعود على إدارته بالنفع والإيجاب الكبير.

عرفته إدارياً ناجحاً ووجهاً اجتماعياً من تلك الوجوه -القليلة -الشريفة، النزيهة، العفيفة والمستقيمة، التي بينها وبين التزلف والنفاق عداء مستحكم والتي تشرف كل من يعرفها.

بكاه عندما انسحب من منصبه صغار الموظفين قبل كبارهم، وأثنى عليه معظم المراجعين الذين لا يملكون لا حول ولا قوة سوى ملفاتهم ومعاريضهم مصحوبة بكبريائهم وعفتهم. ويكفيه طوال عمله الوظيفي، انه القائد الحازم الجاد الذي يمزج الجد باللين، حين يناقش مراجعيه.

إذا تكلم، تمنيتَ أن لا يصمت، وأن لا يتوقف عن تدفقه بأروع الكلمات وأعمقها و أكثرها ايثاراً وحميمية في قلوب سامعيه. فهو المربي والدكتور والأستاذ الذي ملأ منصبه باقتدار. وهو الذي جمع العلم والإدارة، إضافة إلى تحسسه لقضايا مجتمعه والناس، من خلال زراعة البذرة الأولى في قناتي التربية والتعليم.

ومن فرط بساطته، أنه ظل – وأظنه ما زال – زبوناً دائما لحلقة الخضار، يتبضع منها بنفسه، ويقود سيارته المتواضعة بنفسه، ويسكن بيتاً أكثر تواضعاً، مع أن القصور والفلل الأخرى تحوطه من كل جانب، لكن عندما تدخل منزله، تحس بلمسات الأناقة الممزوجة بالبساطة دون أي تكلف أو بهرجة أو استعراض.

لقد حملتني كل هذه الخصال الحميدة، على أن اكتب هذه الكلمة بعد ثماني سنوات من ترك الرجل لمنصبه، عندما رأيت الجموع تتدفق على منزله صغارهم قبل الكبار، من موظفي إدارته ومراجعيها الذين انطبع اسمه في ذاكرتهم، منذ أن كان مسؤولاً يقدم خدماته للناس -كل الناس -دون أن ينظر في زيد منهم أو عمرو وهم يقدمون له العزاء في وفاة شقيقه العميد المتقاعد عبد الرحمن الزيد، رحمه الله.

إنه المربي الدكتور عبد الله الزيد، مدير إدارة التعليم بالمنطقة الغربية سابقاً، والذي – رغم ترجله

عن منصبه من مدة طويلة، إلا انه – مازال يتدافع عارفوه على منزله في السراء والضراء.

هو الدكتور الزيد الذي أثَّرَ وآثرَ بما قدمه لوطنه من خدمات تعليمية جليلة يندر أن يقدمها أحد مثله.

يقول الشاعر:

إن المـنـاصـب لا تـدوم لـواحـد	إن كـنـت في شـك فـأيـن الأول
فازرع من الفعل الجميل صنائعا	فـإذا عُـزلـتَ فـإنـهـا لا تُـعـزل

كراسٍ تُطيح بأصحابها!!

عزائي الوحيد فيه، أنه لم يكن يدرك أن هذا اليوم – الذي سيترجل فيه من كرسيه ويترك مكتبه – قادم لا محالة.

لقد عمل، واشتغل، وتصرف مع الناس، على أساس أنه سيخلد فوق الكرسي الذي يجلس عليه ، ولن يبعده عنه سوى القبر، لكن فجأة أطيح به وبدون مقدمات.

وهذه الكلمة في طريقها للنشر، يكون «صديقي» مدير مكتب أحد الكبار النافذين، قد ترجل من كرسيه وترك مكتبه الذي مارس من خلاله طوال السنوات الماضية كل طقوس الغطرسة والتعالي و«الشخط»، والتي يمارسها عادة أغلب مديري مكاتب الموظفين النافذين، مع المراجعين الذين يضطرون إلى مراجعتهم في بعض أمورهم الضرورية، خاصة ممن يراجعون دون أن تكون لديهم تلك الورقة السحرية الشهيرة بفتح كل الأبواب المغلقة والمسماة «بالواسطة».

ومنذ اليوم الأول لتركه المنصب، توقفت عنه كل وسائل الاتصال من تليفون، وهاتف جوال، ولم يعد يسمع رنينها الذي كان يطربه وإن لم يكن يرد عليها. فبمجرد أنهم سمعوا أنه لم يعد مديراً لمكتب تلك الشخصية النافذة، وأنه تلقى قراراً بتحويل وظيفته إلى وظيفة أخرى هي أشبه بمن يُنقلون إلى الأرشيف «ويركنوا»، أو إلى إدارة العلاقات العامة «تأديباً»، والتي لا يزيد دوره فيها على جمع قصاصات الصحف وعرضها على المسؤول، ثم استقبال ضيوف الدائرة وتوديعهم حين السفر.

وفي أول يوم جمعة – بعد أن تحول فيه صديقي هذا إلى رجل عادي جداً – ومن أول رنة تليفون، وجدته يرفع السماعة لأسمع صوته خافتاً على الطرف الآخر قائلاً: أهلاً وسهلاً «بصديقي» الذي اشتقت إليه وإلى مجالسته والحديث معه طويلاً .. بعد سنوات أخذتنا عنه مشاغل العمل!!

ولم أشأ أن أذكره وأزيد آلامه وأشعره بأن هذه الأهلا وسهلاً التي أسمعها الآن، كانت في السابق تتحول في مكتبه – حين أتصل به – إلى لغة تصريفية، مثل «المدير في اجتماع»، وفي منزله «أبو فلان نائم .. أو خرج». وقد تبادلنا أنا «وصديقي» هذا في هذه المكالمة العديد من كلمات المجاملة وتطييب الخاطر، وبأن كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

وشعرت بأنه منهار جداً ويحتاج إلى من يعيد له توازنه، ويزرع الثقة في نفسه، فاتصلت ببعض الأصدقاء وأوعزت لهم الاتصال به، إلا أن بعضهم رفض رفضاً قاطعاً أن يفعل ذلك، بعد أن تجاهل –وهو في منصبه –معرفته بهم في أكثر من مكان ومحفل.

لكن الذين يؤمنون بمقولة: افعل الخير وارمه في البحر، اتصلوا به وجددوا معه الصداقة، لكن صداقة من افهموه بأن المنصب والكرسي لا يدوم وأن ما يدوم في النهاية هو الفعل الطيب لا أكثر ولا أقل. فهل أنتم مع ما فعلناه تجاه صديقنا هذا، أم مع الأصدقاء الآخرين؟.

لدي زميل صحفي، يصر على أن يدخلني إلى عالم الانترنت بالقوة الجبرية، ولم يصدق حين دعوت نفسي يوماً عنده على الغداء حتى رحب بذلك، وسعد جداً، حيث وجد أن الخطة قد نجحت، ولا يحتاج الأمر إلا إلى بعض الرتوش، عندما أحكم محاصرتي داخل غرفة صغيرة بها ذلك الجهاز السحري الذي يضع العالم أمامك على الشاشة الصغيرة. ولمزيد من التشويق فتح الجهاز على الموقع المسمى «مساحة حرة» وقال لي: هنا ستجد ضالتك في قراءة كل ما يمكن أن تريده، من أخذ ورد بين المتحاورين الذين يزحفون أحياناً إلى لغة غير مستحبة على طريقة الأفلام الأمريكية، التي يمنع مشاهدتها للصغار بعد الساعة التاسعة ليلاً.

وفي «حديقة الهايدبارك»، رأيت كل شيء من خلال تلك الشاشة ولم يعد هناك شيء محظور، إلا ما تمنعك عنه نفسك وعاداتك، التي بدأت تتراجع أمام العديد من الاغراءات التي أصبحت بدون «رقيب أو حسيب».

بعد الغداء وشرب الشاي، قررت أن أغادر منزل صديقي، لكنه أحب أن يستشف مدى إقبالي من عدمه فيما رأيت وشاهدت من خلال شاشة الانترنت. ولم يتطلب الأمر الكثير من العناء وهو يسمع قبولي لزيارة ثانية، أكون فيها قد وصلت إلى مرحلة الاقتناع بضرورة شراء الجهاز والاشتراك في برامج الانترنت.

في المساء وبالصدفة، كنت في مجلس زميل آخر وإذا بي أشاهد برنامجاً تلفزيونياً على إحدى القنوات من تلك البرامج التي ينطبق عليها «اللي ما شاف شيء شاف .. تجن»، فصرخت بصوت عال: لقد رأيت مثل هذه المناظر اليوم عند صديقنا فلان على الانترنت .. بل هنا أكثر حركة.

وهنا، أعدت النظر في إمكانية تعاطي الانترنت، ما دامت بعض القنوات التلفزيونية تقوم بنفس الدور وبأكثر جاذبية، لكنني اقتنعت في النهاية أن مثل هذه الأشياء ستصبح مع الوقت أقل تأثيراً بعد أن تخطت نطاق الممنوع، لأنه في العادة لا يدفعك إلى الفضول إلا ما كان ممنوعاً.. والخلفيات كثيرة. فعندما جاء التلفون كثرت المعاكسات والآن تكاد تكون معدومة.

وفي السنوات الأولى من خروج المرأة للدراسة والعمل، كانت تتعرض لبعض من «همجية» .. والآن تكاد هذه الظاهرة أن تكون مقتصرة على من ما زال في نفوسهم مرض، من بعض رواد الأسواق التجارية كالمساعدية وشارع التحلية.

لكنني وجدت نفسي – بعد كل هذه المفارقة – أشتري إحدى المجلات التي فوجئت بصفحة منزوعة منها، وطمس أخرى. فضحكت من قلبي، وقلت في نفسي أنها «مسألة وقت».

تعتقد «انتظار» أن الدموع التي ذرفتُها فور إبلاغي إياها بنجاحها في الثانوية العامة عائدة، لكونها تفوقت بدرجة امتياز، ولم تدر – هذه الشقية – أن ذلك كان لسبب آخر، خلافاً عما تعتقد وتظن.

ذرفتُ الدموع فرحاً، لأنها كفتني لحظات المهانة التي كنت سأواجهها، لو كانت نسبتها أقل من المعدل المرتفع لدخول الجامعة، والتي سأجد نفسي عندها مضطرا للتوسط عند الذي «يسوى والذي ما يسوى»، وعند من «يصر» لي طرف الثوب قائلاً: ولا يهمك اعتبر دخولها منتهياً»، بينما هو في حقيقة الأمر ترحيب مكشوف «للزحلقة» وداخله يقول: «شوف الغبي هذا الذي يعتقد أن مجرد إعجابي بكتاباته أحياناً يعطيه الحق بالتجرؤ لمقابلتي والتوسط لدي لإدخال ابنته إلى الجامعة، ولم يدر أن هناك أموراً أخرى تتجاوز الصداقة والعلاقة الحميمة، لتكون مبرراً لأن أضع ثقلي كله من أجل إدخال ابنته للجامعة»!!.

لقد كفيتني كل هذا يا ابنتي بتقديرك المرتفع، وقد علمتني الحياة أن أي إنسان لا يعتمد على نفسه بجده واجتهاده، سيضطر أن «يريق ماء الوجه»، والوقوف على أبواب أصدقاء ومعارف يظهرون له الود، وفي الباطن يستعجلون اللحظات التي يودعهم فيها خارجاً من مكاتبهم.

وليتك تدرين «يا انتظار» أن لحظات السعادة والفرح في حياتي قليلة جداً، بل شحيحة، ولا تسأليني عن مصدرها وتفاصيلها وأنا الذي حددت مستقبلي ومستقبل حياتكم في أن يكون قدوتي ومثلي الأعلى، ذلك الكادح الذي يشقى طوال النهار في سبيل الحصول على لقمة العيش الحلال.

صحيح أنك كنت تعترضين – وأنت صغيرة – على كثير من لوحات الممنوع التي أضعها أمامك وأمام أختك «آلاء»، لكنني أتمنى – بعد أن تحسنت الأحوال المعيشية – أن لا تكون هذه مدعاة «لشوفَة النفس والزومة» على قريناتك من اللاتي ما زال آباؤهن يسكنون في بيوت شعبية، كما كنت تسكنين، ووسيلتهم الوحيدة في إيصال بناتهم إلى المدارس «وانيت أبو عراوي»، أو سيارة شعبية متهالكة.

إن التواضع يا ابنتي كفيل بإزالة الفوارق بين الغني والفقير، وإذا كنت تحبين أباك فعلاً، فلا تستنكفي من ركوب سيارتنا الشعبية «الكورلا» – موديل ٨٨ –، لأن قيمة الإنسان ليست بالسيارة الفارهة التي يركبها، وليست بالمنزل الكبير الفخم الذي يسكنه، وإنما قيمته بالعلم الذي تعلمه وبالقيم التي نشأ وتربى عليها.

ولا أخالك إلا فاعلة ذلك ومقتدية بمن يضعون المبادئ والقيم نصب أعينهم. وأريدك أن تنسي أن أباك -هو الصحفي - الذي يكتب في الجرائد، فكثير هم الذين يكتبون ويمضغون الكلام على طريقة «كلام الليل مدهون بزبدة، إذا طلع عليه النهار ساح».

اطلعت على رد سعادة اللواء عبدالعزيز سجيني مدير عام الجوازات يوم السبت الماضي ٣٠ رمضان ١٤٢١هـ حول موضوع «حليمة في الجوازات» والذي كنت كتبته في ٦ رمضان ١٤٢١هـ وطالبت فيه بالعودة إلى النظام القديم في جوازات جدة، بعد أن وصلت طوابير المراجعين إلى الشارع العام، بسبب النظام الجديد الذي طبق أخيراً، والذي يفرض عليك الوقوف على شباك الموظف إلى أن تنتهي معاملتك، سواء كانت هذه معاملة واحدة أو مائة معاملة، بينما النظام القديم وضع نظاماً سهلاً، ولكل شباك إجراء.

في النظام القديم، يضع المراجع معاملته في كيس ثم يعود بعد ذلك فيجدها منتهية، وهو نظام لا يتطلب أن يقف المراجع أمام موظف الشباك لينهي معاملته التي قد تطول إجراءاتها، ويتسبب بالتالي في تعطيل المراجع الذي بعده، مما يؤدي إلى زيادة الواقفين في الطابور من المراجعين والى تعطيلهم، بحيث قد ينتهي الدوام ولم يصلوا إلى دورهم في الطابور.

وبعيداً عن لغة اتهامه لي بالغضب والتهجم في رده، أرجو أن يتأكد سعادة اللواء أنه ليس بيني وبين المسؤولين في إدارة جوازات جدة أي ثأر أو ضغينة، خاصة إذا عرف سعادته أن أغلب قيادات الجوازات بجدة هم أصدقائي. وقد تمتد صداقاتي لبعضهم سنوات طويلة على مدى تنقلهم من جهاز إلى آخر، وخاصة العميد علي عسيري والعقيد طارق حرازي. وهذا ما ينفي عني تهمة استهداف جوازات جدة بالنقد، وإنما هدفت في الحقيقة – بعد أن لمست أن هناك تأخيراً على ألسنة المراجعين – في إنهاء الإجراءات في الجوازات وهي التي لم يعهدوها من قبل ، وغرضي من الإشارة إليها هو أن يعيدوا النظر فيها، ويعودوا إلى إجراء «ضع معاملتك في الكيس ثم عد إليها بعد ذلك ستجدها منتهية»، بدلاً من الوقوف على شباك الموظف وتعطيل الطوابير التي تنتظر دورها.

وليت سعادة اللواء يعرف أنني بريء من تهمة الغرضانية أو الكتابة الشخصية، بحجة عدم الاستجابة لوساطتي في إعفاء من غرامة، وهو قول مردود على الذي كتب لسعادتكم التقرير، لأنه لا يمكن منطقياً –على افتراض أنه حدث –أن يكون لي كل هذه المساحة من الصداقات الطويلة من رجالات الجوازات وأفشل في التوسط لإعفاء شخص يستحق الإعفاء، وفي وضح النهار، وبقناعة المسؤول، بدلاً من اللجوء إلى الطرق الملتوية والمظلمة التي نعرف أنها موجودة في بعض الإدارات، وإن كانت بنسب ضئيلة، ويقوم بها بعض الموظفين من ذوي النفوس الضعيفة.

وقد تعودت يا سعادة اللواء على مثل هذه الاتهامات في ردود بعض المسؤولين الذين قد تضيق صدورهم بالنقد والملاحظات المخلصة، والذي أربأ بسعادتك أن تكون منهم، كما اربأ بنفسي عن أن اتخذ هذه المهنة لأغراضي الشخصية، وأنا الذي طول عمري يعرف حلاوة وطعم الرزق الحلال، مهما كان صعباً وقليلاً.

لكاعة الرقيب والمراقب معاً !!

الخبر الذي نشر في منتصف الأسبوع الماضي في إحدى الصحف المحلية - لا أتذكر اسمها الآن مع الأسف - والذي أدى إلى تعدي مواطن بياع على مراقب بلدية بالضرب، وانتهى بهما الأمر إلى قسم الشرطة.

خبر كهذا، يكشف - دون شك - عن وجود ظاهرة عنف، إذا لم نبحث جدياً عن أسبابها ومسبباتها الحقيقية ومعرفة خلفياتها ودراستها دراسة جادة وكاملة من جميع الأطراف، فستكون أقسام الشرطة مستقبلاً مليئة بأنواع هذه القضايا، التي لم يتعودها المجتمع من قبل بين مسؤول ومواطن، لكن في ظل ضبابية الرؤية في تطبيق الأنظمة وميوعتها، أصبحت تُخترق أخيراً، وما يطبق على عمرو لا يطبق على زيد.

وبصرف النظر عما سبق، فقد تحول المراقب -أي مراقب ، إلا من رحم ربي -إلى «بعبع» يخيف ولا يُحترم، لأن بعض المراقبين قد حوّل تلك الظاهرة إلى ظاهرة مكشوفة، وخاصة عندما تتعلق المخالفة بتجاوزات يمكن غض الطرف عنها من قبل المُطبِّق، الذي مع الأسف الشديد أعطيت له صلاحيات واسعة في تطبيق بعض الأنظمة دون توافر الحد الأدنى من النزاهة والتعقل والنضج لدى المراقب، والذي يقابل يومياً في عمله الرقابي أنواعاً كثيرة ومتعددة من الناس، لهم ظروفهم ونفسياتهم. ولو تعامل المراقب مع كل واحد منهم بظروف اللحظة، لما وجد فيهم من يغضب من تطبيق النظام مهما شعر بقسوته عليه، إذا ما قورن بظروفه الصعبة التي عادة لا يلاحظها إلا مراقب ذو نظرة ثاقبة يرى ما هو أبعد من موطئ قدميه.

ويشهد الله أنه في كل المرات التي أرى فيها مراقباً يحاول تطبيق النظام، ألاحظ أنه يطبقه بشيء من العنف وكثير من القسوة، وخاصة مراقبي البلدية الذين يلاحقون الباعة المتجولين ويداهمونهم بطريقة غير حضارية، وعندها لا تملك أكثر من الإحساس بالدموع في عينيك، والتي يزيد إحساسك بها، كلما رأيت حالة البائع والظروف القاسية التي يبيع فيها على جانب الطريق.

أما تجربتي الشخصية وغيري مع مراقبي الكتب في الإعلام، فلا أظنها تختلف كثيراً عن مراقبي البلدية، سوى أن مراقب الإعلام يبعثر لك كل الكتب - التي يمتَنِعُ عن فسحها - على الطاولة، أما مراقب البلدية فيبعثر خضار وفواكه الباعة المتجولين على قارعة الطريق، والفرق بينهما هو أن الأول يصادر غذاء العقل والثاني يصادر غذاء الجسد!!

هذا اليوم الوحيد الذي سأقول لكم فيه كل عام وأنتم بخير، ولن أكتب لكم عن البلدية، أو المرور، أو الطرقات المحفرة، أو اللمبات المطفأة في الشوارع حتى ليلة البارحة.

العيد والحب والحياة الجميلة، التي تراها هذا اليوم على وجوه الصغار الأبرياء الذين يفرحون بحلاوة العيد، وطلب العيدية، والتمرجح في الملاهي.

وعندما تستمع لنغمات أصواتهم المغردة، يخفق قلبك من مكانه فرحاً وأنت تتمنى حينها لو عاد بك الزمن مرة أخرى صغيراً لتستمتع ببراءة الطفولة.

فالصغار هم الوحيدون القادرون على انتزاع الابتسامات من على شفاه الكبار، الذين تعودوا أن يشاطروهم الفرحة التي لا تكتمل إلا بمزيد من الدفع لتلك الملاهي والمنتزهات ذات الأسعار العالية، التي لا ترحم كبيراً أو صغيراً، غنيا أو فقيراً، المهم الجميع يدفع، سواء كان راضياً أو غير راض، من اجل ابتسامات بريئة تريد أن يكون عيدها لهواً ولعباً دون مضايقة، أو تعكير مزاج، قبل الدخول في دوامة المدارس من جديد، وحمل شنط الكتب التي ينوء بحملها الثقلان.

ابتسامات بريئة وثياب جديدة ونفوس صافية وجميلة.

ولم أعد أرى في طريقي تلك الأشياء القبيحة التي تصادفني كل يوم، كل ما أراه هذا اليوم، أشياء أخرى تشي بالفرحة والسعادة، ولتكن مؤقتة، المهم نخرج قليلاً من لحظات الكآبة والروتين اليومي الذي لا يتغير إلا بحلول الأعياد وبعض المناسبات السعيدة التي قد تأتي أحياناً خاطفة، ولكنها تترك في الأعماق علامات قد تخفف قليلاً من غلواء وقسوة الحياة التي لا ترحم رغم كل وسائل التسلية والترفيه الحديثة التي قد ترضي أذواق الصغار، حتى ولو كانت مؤقتة، يعودون بعدها، وبعد انقضاء أيام العيد الثلاثة، إلى روتينهم اليومي الذي يبدأ ولا ينتهي إلا مع إطلالة عيد جديد أو عطلة مدارس، والتي رغم كثرتها، إلا أنها في كثير من الأحيان منزوعة البركة، ولحظات السعادة فيها قليلة، لماذا ؟ لا أدري.

وعلى أي حال .. كل عام وأنتم بخير .. ولو من أجل الصغار الأبرياء فقط.

ليست مجرد أخطاء يا دكتور!

الأخ الزميل علي حسون ..

لا أستطيع أن أنتظر إلى أن يأتي موعد زاويتي ليوم الأحد القادم، وهذا الدكتور يستفزني بمقالته المنشورة أمس الأول في إحدى الصحف، بعد أن ترك موقعه قبل أيام وأرادها تصفية حسابات!!

إنه رجل، وسيلته الوحيدة أنه كلما ابتعد عن منصب كان يتقلده، ألتفت إلى الوراء لكي يتسقط عيوب من كانوا معه، وأخطاء من عينوه، أولئك الذين جبن عن مكاشفتهم وهو على رأس الوظيفة.

إنها الانتهازية .. وهو هنا، ليس أي رجل آخر .. إنه كاتب ومسؤول، وأيضاً دكتور مع الأسف.

لم اصدق عيني وأنا اقرأ كلماته الناقدة «الباردة جداً والساخنة» وهو يسكبها بحدة على صفحات الجريدة التي يكتب فيها .. ليبدو فارساً وهو يضغط من خلالها على الزناد وكأنه يعالج مشكلة بعينها لم نجرؤ نحن على معالجتها، أو الخوض فيها، لكنني فوجئت في اليوم التالي مباشرة حين جاءني «بالأخبار» من لم تزود. وحين عرفت أن تلك المقالة كانت عبارة عن زفرة غيظ انتهازية لرجل ترك موقعه حديثاً، وحين أصبح خارجه تفتحت عيونه وأصبح يرى من الأخطاء والعيوب ما لم يكن يراه وهو في المنصب.

هل بلغت بك الجرأة –يا أيها الدكتور –إلى الحد الذي يجعلك تستغل خلافك مع الآخرين، والذي بقيت متكتماً عليه طوال الفترة التي كنت فيها على كرسي الوظيفة الإعلامية؟ وبمجرد أن تركت المنصب، أو تركك هو –لا فرق –استدعيت غيظك واستليت سيفك وقلمك، لتصفي حسابات قديمة كان يفترض أن تبوح بها، وأن تكون شجاعاً وصادقاً في قولها، وأنت على كرسي الوظيفة، حتى لو أدى بك ذلك لأن تدفع الثمن إما مفصولاً أو مستغنىً عن خدماتك. فهذه هي الشهامة المطلوبة.

وحتى لو افترضنا «مجرد افتراض»، أنك دفعت الثمن، فأنت لن تموت، ولن تتشرد، ولن ترتعد جوعاً، وستجد من يحتضنك موظفاً في مؤسسة أخرى جديدة، لأن المسؤولين فيها سيقدرون صدقك وشجاعتك مع الآخرين.

أما وأنك لم تفعل لا هذا ولا ذاك، وفعلت عكسه، بمجرد أنه تركت موقعك، فهذه سقطة كبيرة، ووصولية لا أظن أنه قد سبقك إليها أحد.

وهذا يذكرني بحادثة أخرى ورطت نفسك فيها «نشراً»، عندما دافعت عن إدارة حكومية لم يكن من المفترض الدفاع عنها. وقد لامها الجميع على ذلك الخطأ ما عداك، حينما حاولت أن تجد لهذه الإدارة

عذراً ومخرجاً للإفلات من ورطة الحادث الفادح الذي وقعت فيه، والذي كان ضحيته طفل بريء .. إلا أن الحقيقة لها وجه واحد وليس وجهان.

إنني لست خائفاً عليك من هذه المسلكية المرتدة فحسب، وإنما الأكثر إثارة للخوف يا سعادة الكاتب أن تكون يوماً في موقع المسؤولية، فتزداد حمى الانتهازية لديك، وحين لا تعجبك قضية ما، لن تتردد في أن تستل غيظك وقلمك -ذو الريشة الانتهازية - للخوض فيها، و «كأننا ناقصين»، أو أننا بحاجة إلى أولئك الذين حين لا يعجبهم «خلقة» شخص ما يبدعون فيه نقداً وتجريحا وشتماً.

وصدق الذي قال:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة   وإن خالها تخفى على الناس تعلم

ما هذا الاحتفال بـ«فريدمان»؟!

جاء إلينا أخيراً الكاتب الأمريكي «توماس فريدمان»، الذي تبنى حملة شعواء على الإسلام والمملكة بعد أحداث ١١ سبتمبر، والذي لم يترك مفردة إنجليزية لم يستعملها نماً في المسلمين والعرب.

ورغم ذلك، فعندما جاء إلى هنا، في زيارة إلى المملكة، فتحنا له الأبواب والصدور، من منطلق أن يرى الحقائق ويعايشتها بنفسه. وقد التقى بالكثيرين ممن أراد أن يلتقي بهم، ومن أشير عليه أن يلتقي بهم من الذين يمكن أن يوضحوا له الصورة الحقيقية التي قد تكون غائبة عن ذهنه -وان كنت أشك في انه لا يعرف الحقيقة -لمعرفتي أن كاتباً بهذه المكانة والوزن وقريباً من صناع القرار الأمريكي، لا تخفى عليه خافية، إلا إذا أراد أن يلوي عنق الحقيقة، لكي يرضي شريحة معينة من الذين يؤثرون ويتأثرون بالقرار الأمريكي، من الإسرائيليين واللوبي اليهودي الأمريكي الذي هو جزء منه.

ولا أعتقد أن كاتباً بهذا الحجم جاء إلى المملكة إحدى عشرة مرة – غير هذه المرة – قد يجهل أو لا يعرف الكثير عن المملكة، إلا إذا لم يرد هو ذلك. ومع ذلك فإن ما فعله في هذه الزيارة قد يكون مختلفاً عن كل زياراته الماضية إذا احسن النية، وهذا بيت القصيد.

لقد جاء غيره إلى المملكة، وأُعطي الصور الصحيحة. ومع ذلك عاد ليكتب شيئاً آخر مخالفاً لما شاهده واطلع عليه. فهل هذا «التوماس» يختلف عن غيره من بقية «التوماسيين»؟ أم أن العجين مختلف والخباز واحد ؟ أو الخباز مختلف والعجين واحد.؟

ومع أن هذا الكاتب، قد اعترف بشكل غير مباشر أنه أطلع، وشاهد، وعرف في هذه الزيارة ما لم يعرفه في كل زياراته السابقة، فذلك يظل كلاماً من نوع المجاملة، إذا لم يكن مقروناً بفعل كتابي يطلع عليه القاصي والداني، من الذين يقرأون جريدة «نيويورك تايمز» الواسعة الانتشار.

وإن ما لفت نظري – بعد عدة لقاءات من جانب هذا الكاتب بعدة شرائح في المجتمع السعودي – أن بعض الكتاب – حين التقوه – أخذوا يشيدون به بطريقة تتجاوز هامش المجاملة، إلى درجة الإطراء الفج، وكأنهم يشيدون ويمدحون مسؤولاً في دائرة حكومية أنجز لهم معاملاتهم بدون أن يقفوا في الطابور. فهل وصلت ببعض كتابنا السذاجة إلى هذا الحد في مدح كاتب أمريكي موضوعيته محدودة وضئيلة جداً؟ بصرف النظر عن أهدافه البعيدة التي يريد، أن يصل من خلالها إلى ما يريد، مهما كانت أهداف وقضية العرب والمسلمين واضحة وعادلة؟

هل سمعتم عن كلب يعض إذن أخيه حتى لو كان هذا الآخر يستاهل الشنق وليس العض فقط.؟



عندما يكون الأمر متعلقاً بالموت، لا تملك إلا أن تردد الآية الكريمة التي تقول: «فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون»، صدق الله العظيم.

الشيخ علي شبكشي مات .. نعم مات..

وهذه نهاية كل حي .. لكن علي شبكشي مات جسداً ولم يمت تاريخاً. وقد خلف وراءه أبناء بررة – إن شاء الله – وصرحاً كبيراً شامخاً اسمه إمبراطورية عكاظ، تلك التي «كانت» تعد مفخرة الإعلام السعودي، وكل الأسرة الصحفية التي سعدت بتنامي هذه الإمبراطورية الصحفية، بعد أن أرسى قواعدها في عصر النهضة ووضعها «أبو حسين» على الطريق الصحيح بحماسه ونشاطه. فقد استطاع في سنوات قليلة محدودة جداً أن يجعل عكاظ الجريدة تزهو بنفسها تحريراً وتوزيعاً وكوادرا صحفية أغلبها كانت مطلباً للصحف الأخرى. وكانت تلك الكوادر تتلقى إغراءات لتضمها إليها.

والمرحوم علي شبكشي، لم يكن مديراً عاماً عادياً تعود أن يبصم بتوقيعه على كل ورقة، أو طلب يصل إليه من التحرير أو الإدارة، وإنما كان مديراً عاماً مختلفاً كلياً في الرؤية والتفكير والتخطيط لمؤسسة راهن على نجاحها، بل راهن على أن من يأتي بعده، لابد أن يجد أساساً متيناً يسير عليه بدون عوائق أو منغصات.

لقد دخل علي شبكشي التاريخ، منذ أن استطاع بذكائه غير المحدود، أن تكون عكاظ الجريدة الأولى التي تصل إلى القرى والنجوع البعيدة، ليقرأها هناك من بدأ «يفك الحرف» من أبناء البادية.

وما زلت أذكر له تساؤله الدائم عن ما إذا كانت عكاظ ما زالت مستمرة في الوصول إلى مدن وقرى الساحل الشمالي، باعتباري أحد أبناء هذه القرى، لدرجة أن مشاغله واهتماماته المتعددة والكبيرة، لم تمنعه عن التوقف لدى إحدى البقالات الصغيرة، للتأكد من وجود جريدة عكاظ ضمن بقية الصحف على حمالة الصحف في البقالة.

وطموحه غير المحدود، كان أيضاً صانعاً للنجوم الصحفية التي تتوزع هذه الأيام على العديد من الصحف.

وسأظل اذكر لذلك المرحوم علي شبكشي، حرصه الدائم على الاحتفاظ بي كصحفي ضمن المجموعة العكاظية، كلما شعر أن هناك عرضاً مغرياً قدم لي من إحدى الصحف.

ويكفي هذا الرجل حباً وتقديراً للكوادر الصحفية، أنه عندما ضقت في إحدى المرات بعكاظ وانتقلت

للعمل في إحدى الزميلات بواسطة زميل عزيز كان مديراً للتحرير، حاول أن يعيدني مرة أخرى إلى عكاظ، وإغرائي بسيارة «بوني» جديدة ، عندما شعر أن سيارتي المتهالكة القديمة لا تسير إلى الوراء إلا بواسطة الدف!

واشهد الله أن من مميزات المرحوم «أبو الحسين -علي شبكشي» أنه يحترم الصحفي صاحب الرأي والمواقف، وإن اختلف معه. ولهذا تركت عكاظ أكثر من مرة، ثم عدت إليها مرة أخرى، عندما شعرت بالاستقلالية في عملي الصحفي الذي ليس متطابقاً مع بعض من في التحرير.

رحم الله علي شبكشي وأسكنه فسيح جناته.

مات مديوناً وتقاعده في التأمينات !!

مات الرجل بعد حياة حافلة بالعمل والجد والاجتهاد، ولم يترك وراءه شيئاً من حطام الدنيا، سوى زوجة مسكينة تعيش على باب الله، ليس لها ولد ولا بنت يعينانها على العيش بكرامة، لما تبقي لها من عمر قضت أكثره مع المرحوم زوجها في هناء وسعادة، رغم عدم إنجابهما لذرية تزيد سعادتهما سعادة، وقد تعينهما في الكبر على أمراض الشيخوخة التي تحتاج إلى ولد صالح أو مال يغنيهما عن شظف الحاجة، عندما تضطرهما الظروف المرضية إلى شراء الدواء الذي يستحيل وجوده في مستشفيات الحكومة.

ولم يكد ينفض المعزون، حتى طرق الباب الديانة الذين كان المرحوم لا يتأخر في التسديد لهم بين الحين والآخر من ذلك الدين الذي عليه، لكنه توفي ولم يكمل السداد. فجاؤوا بعد وفاته مسرعين للحصول على بقية دينهم، اعتقاداً منهم أن المرحوم قد ترك مالاً مكنوزاً، وقبل أن يقتسمه الورثة الذين في مثل هذه الحالات –إذا وجد– لا تعرف كيف يخرجون مثل النبت الشيطاني، بينما عندما كان المرحوم على قيد الحياة لم يتذكر أن له أحداً يمكن أن يرثه.

ولم يجد الديانة داخل الدار، سوى زوجة محطمة غلبانة ومسكينة تتوشح السواد. وحيث إن المرحوم قد ترك معاشاً تقاعدياً كموظف خاضع لنظام التأمينات الاجتماعية، إلا أن الزوجة المسكينة ليس لها نصيب من ذلك المعاش سوى السدس، أما الباقي «فتأكله» مؤسسة التأمينات الاجتماعية دون وجه حق، وكان الأولى، إذا لم يكن يعطى للزوجة –وهي وريثته الوحيدة وصاحبة الحق في مال زوجها– فلا أقل من تسديد الدين الذي عليه من ذلك المعاش التقاعدي، الذي استقطع من رواتبه خلال سنوات عمله، طالت أم قصرت.

ولكي يرتاح المرحوم في قبره، وتخرج مؤسسة التأمينات الاجتماعية من شبهة أكل ما ليس لها، فعليها أن تسدد ما على المرحوم من دين عجز عن تسديده أثناء حياته.

إذا كنت مجنوناً، فصاحبي أكثر تخلفاً.

واسمعوا الحكاية من «طقطق» إلى سلام عليكم.

منذ أن أطلت «بيان» في حياة أمها وحياتي قبل أسبوعين، واتصالات التهنئة لا تنقطع، بالرغم من بعض التساؤلات التي تدهشني وتحزنني في آن واحد، عندما يسألك أحد المهنئين قائلاً:

مبروك ثم يتبعها متسائلاً: ولد أم بنت؟

وعندها، لا تملك إلا أن تجيبه فرحاً سعيداً بأنها بنت.. فتشعر – ومن خلال نبرات صوته – أن حرارة التهنئة في المرة الثانية قد أصابها البرود، وأن صوته عبر الهاتف قد كسته لحظات صمت عجيبة ومفاجئة، لا يملك بعدها إلا أن يودعك حتى قبل أن يكمل ما بدأه من حديث جانبي في ليلة سابقة.

ويبدو أن أحدهم لم يقرأ الخبر منشوراً، بل سمعه منقولاً بواسطة صديق ثالث قال له: بارك «للفايدي» جاله مولود ودون أن يحد له ولداً أو بنتاً.

اتصل هذا بي وقال:

– مبروك.

– الله يبارك فيك..

– طمنا «جبت» ولد أم بنت؟

– ولد ..

ولم يكد يسمع كلمة ولد حتى شعرت بأنه طار من الفرحة وأن صوته يصهل عبر أسلاك الهاتف نشواناً وهو يردد مبروك .. مبروك .. مبروك، وكأن المولود مولوده هو.. ثم سمعته يقول:

– متى الأكلة إذن؟

– يا عبد الله، انتظر قليلاً حتى استعيد توازني مرة أخرى من جراء العشرة آلاف ريال، التي دفعتها مقابل الولادة وتوابعها في أحد المستشفيات الخاصة، ورغم نسبة التخفيض التي حصلت عليه من المستشفى، وإلا لكانت أكثر من هذا المبلغ.

وسمعته يضرب على صدره ليقول:

– أخوك، يقصد نفسه، «قدها وقدود» وعلى كل تكاليف الأكلة!

شكرته وسألته قائلاً:

– يا الله يا عبد الله .. لو قلت لك المولود بنت، هل ستتحمل تكاليف الأكلة؟

– «يا واد!! الولد ولد!»، ألا تكفيك بنتان «إنتظار وآلاء» ..دعنا نفرح لك هذه المرة ونلقبك يا أبو فلان .. وليس يا أبو فلانة.

وانهينا المكالمة على أساس أن المولود ولد، لكن أحد الخبثاء نقل له الحقيقة وإذا به يتصل بي في اليوم التالي غاضباً لائماً قائلا:

– كيف ياواد تكذب علي؟

فأجبته متخابثاً بأنني لم أرد أن أغضبه، عندما شعرت أنه سعيد، فقلت له أن المولود ولد وليس بنتاً فقال:

– ولكن الحقيقة أنها بنت..

يكفي أنني أنا وأمها سعيدان بها، وإذا به قبل أن يقفل السماعة في وجهي يقول:

– صحيح انك مجنون!!

مثل هذا الحوار، تكرر مع أكثر من صديق وقريب، ممن لا يسعدون إلا بالمولود الذكر ويحزنون أشد الحزن، إذا جاءت لهم بنت أو جاءت لأحد أصدقائهم ومعارفهم.

وأشهد الله، أن هناك بنات «أرجل» من مائة «شحط»، الولد أول ما «ينبت» شنبه يقابلك بالعقوق، وفوق ذلك يمطرك بطلباته التي لا تنتهي، وحتى وأنت في قبرك لا يدعو لك، رغم «تكويشه» على كل الورثة وطرد أخواته البنات؟!

محسوبكم في جيمس الهيئة..!

حاول الزملاء في البلاد الثلاثاء الماضي مداعبتي، وكتبوا خبراً عن «دخولي التخشيبة» وهم يرمزون إلى أن أترك الشأن الاجتماعي والعام .. والتحول إلى كتابة القصة، ملمحين بذكاء إلى أن هذه القصة التي سوف أكتبها، أبطالها يحبون بعضهم داخل «التخشيبة».

وحتى لا يتوه معي القارئ في أحاجي وألغاز .. فقد حدثت القصة فعلاً مساء الثلاثاء الماضي الساعة العاشرة مساء على كورنيش جدة مع بعض التبديل، عندما تقدم نحوي رجال الهيئة، حينما كنت أجلس أنا وزوجتي على طرف الشاطئ، وطالبوا –بطريقة حادة قليلاً– ما يثبت أن هذه زوجتي. وحيث إن المكان عام ولا يوجد فيه ما يدعو إلى هذا الطلب، أو «الخلوة» .. فقد امتنعت في بداية الأمر عن إعطائهم أي شيء، وبدأت أحاورهم بأن من يريد أن يكون في خلوة ومعه امرأة عشيقة لا يجلس في هذا المكان العام وأمام الناس.

ولم يقتنع الشيخ..!

وبدأ الحوار يحتد ويتطور، بعد أن أصبحت قاب قوسين أو أدنى من ركوب «جيمس الهيئة»، ومعي زوجتي التي بدأت ترتعش من الخوف.

وفجأة، سمعت الشيخ يقول بصوت مرتفع: تركب «الجيمس» وأنت صاغر.. ولم يدر الشيخ أنه أفسد علي متعة النزهة بهذه الكلمة التي استصعبتها أن تصدر من شيخ ، واستصعبت قبلها طريقة مداهمتي أنا وزوجتي، وكأننا في وضع مشين يتطلب تدخل الهيئة. ولكي أكون صادقاً فقد جاريت الشيخ في حدته وبعض كلماته التي تجاوزت ما هو مطلوب من شيخ يفترض أن ينصح بهدوء وينهي بحكمة.

وصممت أن لا أركب «الجيمس»، ما دامت هذه زوجتي وليست عشيقتي. وتوصلنا في النهاية إلى حل اقترحه بعض من كان مع الشيخ من رجال الهيئة إلى قبول الشيخ مراجعته في مقر الهيئة، لتقديم كل الأوراق الثبوتية له بعد نصف ساعة. وإن كان قد شكك في مراجعتي، وقد حدث فعلاً، لكن الجهل في الموضوع أنني وجدت الشيخ في مكتبه غير ما كان عليه في موقع الحدث. فقد كان في مكتبه هادئاً ودوداً محاوراً، يستمع إلى ملاحظاتي واستمع إلى نصائحه، لدرجة أننا تحاورنا بكل صراحة عن أشياء كثيرة شجعتني على بحثها معه، بما فيها الغزو الفضائي وقيادة المرأة للسيارة.

فالشيخ عبدالعزيز الحارثي رئيس هيئة الأمر بالمعروف في حي السلامة، قد أعطاني مجالاً للحوار

معه، وتواعد مع صديقي محمد صادق دياب وعلي حسون على لقاء قريب يكون فيه الحوار ممتداً وشاملاً. وقد قبل أن يكون الاختلاف وارداً، والاجتهاد كذلك، إذا اتفقنا على أن هناك أساسيات في أعمال الهيئة لا يمكن الاختلاف حولها.

ليس مطلوباً، ولا يحتاج إلى أن يزايد على حبه أحد -أياً كان- أو أن يعلن ذلك نشراً، أو من باب تسجيل مواقف، أو كتابة أسماء في دفتر سجل الزيارات في مستشفى الملك فهد بجدة، ما دام أن أصدقاءه ومحبيه بجواره في كل وقت وكل يوم، ولم ينقطعوا عنه حتى آخر نبض من نبضات قلبه العليل.

وفي كل المرات التي قابلته فيها، كان طريح الفراش ويئن من آلامه المبرحة، لكنه يصمت صمت العظماء، فلم أتمكن من سبر أغواره. وكم من مرة قيل لي فيها: لا تخف عليه، سيتجاوز الأزمة، وسيهب من على سريره واقفاً، مثلما كان في كل أزماته السابقة، وسيتكلم، ويناقش، ويكتب، ويرسم، وقد يشعرك أثناء مقابلته في المرة القادمة بأنك أنت المريض، لا هو، فهو ابن القوة والإرادة العجيبة، والصمود الذي يفتت الصخر.

وقد كان بالفعل كذلك.

إن فيه مقاتلا على خط النار.. لا يعبأ لا برصاص البنادق، ولا بالقنابل الحارقة، ولا بمدافع الرشاش داخل جسمه .. سلاحه الوحيد للرد على كل ذلك العنف الوحشي الذي يفتك بجسده، هو القلم، ومناقشة الأصدقاء، والزملاء، والأحباب، والحوار معهم حتى شروق الشمس.

منتهى الأناقة إذا لبس .. ومنتهى السمو إذا تكلم .. ومنتهى الدقة في العبارات التي تخرج من فمه متناسقة، لتضيف لمن حوله بعداً آخر أكثر إشراقاً، وأن المتحدث أمامهم إنسان آخر مختلف عن بقية البشر في كل شيء، صموداً، وإبداعاً، ولغة ثرية، وترتيب أفكار، وكأنه يتحدث من ورقة معدة سلفاً للوقوف بها على أحد المنابر.

هكذا عاش، وهكذا مات، عبد العزيز مشري.

وحيث إن جريدة «اليوم» هي ملهمته الأولى والأخيرة، والطريق لمصادر إبداعه والوصول به إلى كل الناس، فلا أخالها إلا أنها ترتب لشيء ما سيخلد ذكرى هذا المبدع «المشري»، الذي أماتنا جميعاً وبقي هو، يشدو حياً وميتاً، حتى أنني ظننت بعد قدرة الله وقوة احتماله لمرضه كل تلك السنوات الطويلة، أنه سيقفز فجأة من نعشه المحمول على أكتاف أصدقائه ومحبيه، ليقول ضاحكاً: «لا يزال – يا أصدقائي – في العمر بقية».

أما من استغرب وقال: إنه فوجئ بكثرة أصدقاء ومحبي المشري بعد موته، كالصديق الدكتور أحمد

عاشور مدير مستشفى الملك فهد بجدة، والذين لم يسمع بهم قبل موت عبد العزيز، فهذا شأن الدكتور عاشور وشأن من أيدوه في هذا القول، لأنه ولأنهم ببساطة كانوا يعيشون في أبراج عاجية وبعيداً عن عبد العزيز وأمثاله. وكون الدكتور أحمد ومن ساروا في ركابه لم يعرفوا الرجل إلا بعد أن فوجئوا بهذه الصفحات والملاحق التي تكتب عنه، فليس مطلوباً من أصدقاء ومحبي المشري، أن يسجلوا أسماءهم في دفتر الزيارات ليعلم مدير المستشفى بذلك، وهو قابع طوال النهار في مكتبه والدخول إليه والخروج يتم عن طريق مدير مكتبه. بل أقولها وأنا متأكد أن المرحوم عبد العزيز مشري هذا المبدع الرائع، كان محاطاً طوال حياته المرضية بالكثير من الأصدقاء والزملاء.

لقد كانوا دائما حوله ، لم يخل مجلسه يوماً واحداً منهم، سواء كان على فراش المرض في المستشفى أو في منزله أو في مكتبه في المستشفى، كمرشد نفسي، عندما تبنى طبيبه الماهر والإنسان الدكتور فيصل شاهين هذه الوظيفة له، عندما وجد الكفاءة في شخصه. ولدي إحساس أن الدكتور عاشور ورفاقه، أرادوا التخلص من تأنيب الضمير وهم على بعد خطوات من غرفته في المستشفى، ومع ذلك فهم لم يكلفوا أنفسهم عناء زيارته، وفوجئوا بأنه علم من الأعلام في حياته، وبعد مماته، فكتبوا ما هو مخالف لما يحوك في النفس وكرهوا أن يطلع عليه الناس.

مسلسل الاستيلاء على الحدائق !!

آخر مسلسل في الاستيلاء على أراضي الخدمات العامة والحدائق تم أخيراً. وكنت أعتقد حتى هذه اللحظة، أن الحدائق الصغيرة جداً داخل الأحياء الشعبية المتواضعة، في الأمان، وأنه لن يتم احتلالها في ظلام الليل الدامس، وتحويلها بقدرة قادر إلى أملاك خاصة، والتواطؤ أيضاً على استخراج تصريح بناء من البلدية التي يتبع لها الحي «وعلى عينك يا تاجر»!!

حدث هذا، لأرض الخدمات العامة في المخطط الواقع في حي البوادي/ ٢ شارع قريش خلف الكتبي للخدمات البترولية، وأمام منزل المأذون الشرعي أحمد المعبي، مع ملاحظة أن كل السكان الذين اشتروا في هذا المخطط وبنوا مساكن لهم، قد دفعوا مبالغ مضاعفة، كون أراضيهم في هذا المخطط تطل على أرض خدمات عامة، وستتحول مستقبلاً إلى حديقة عامة تسمح لهم بالتنفس مع أطفالهم، عندما تضيق بهم الكتل الأسمنتية، سواء كانوا ملاكاً أو يقطنونها بالإيجار.

ليس هذا فقط، بل إن أرض هذه الخدمات مقام في جزء منها مسجد كبير منذ عام ١٤٠٦هجرية، ويسمى مسجد النور باسم السيدة المرحومة هيفاء عنقاوي، وتقام فيه كل الفروض، ويزداد عدد المصلين يوم صلاة الجمعة، بحيث تمتلئ الساحة التي خلفه عن بكرة أبيها بسيارات المصلين، والفائض منها يضطر لحشر سيارته في أحد الشوارع المجاورة. فبأي منطق يتم الاستيلاء على ارض للخدمات العامة؟ ومن الذي أعطى له حق تصريح البناء لمساحة في مخطط وضعت أصلاً لإقامة حديقة عامة عليها؟ أما كون البلدية تجاهلتها طوال كل هذه السنوات ولم تزرعها أو تغرس فيها بعض الشجيرات، فهذا لا يعطي أحدا حق الاستيلاء عليها من قبل شخص أو حتى أشخاص، لو لم يكن هناك نوع من غض الطرف الذي أدى – ويؤدي عادة – إلى كثير من الإضرار بالآخرين، الذين ليس لهم حول ولا قوة لإيقاف هذا الضرر، سوى التضرع إلى الله بأن يعين من في يدهم القرار على إزالة هذا التعدي ، ولم يجدوا غير الدعاء إلى الله أن يزيل عنهم هذه الغمة وتبقى مساحة أرض الخدمات العامة.

والأمل معقود على أمين مدينة جدة الجديد المهندس عبد الله المعلمي، الذي لا يسرنا أن يكتب في عهده، أن هناك أرضاً مخصصة خدمات عامة استُولي عليها، أو حديقة «لُهِطت» في ظلام الليل بدون وجه حق.

أكرر الكتابة عن هذا الموضوع الذي سبقني في الكتابة إليه الدكتور أحمد دباس، إنطلاقاً من قول تعالى: «وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين».

مقدماً..

يعلم الله أنني أحمل له من الاحترام والتقدير ما يعرفه هو نفسه عني.. لذا أقترح عليه أن يستقيل فوراً وقد وصلت الأمور مع وزيره إلى طريق مسدود.

ولا أدري، متى ينتهي هذا الخلاف والتراشق بالكلمات والإسقاطات غير المباشرة، بين وزير وموظفه الكبير المسؤول عن أحد القطاعات الخدمية التابع للوزارة نفسها.

هذا الخلاف - والذي أخذ أخيراً يطفو على السطح ليعلم به القاصي والداني، بعد أن كانت بدايته على صفحات الصحف وبشيء من الاستحياء - إرتفعت نبرته من كلا الطرفين إلى حد أن أصبح - هذه الأيام - حديث كل مجلس، بعد خروجه عن دائرة الخلاف الحضاري، وتحوله إلى شيء آخر يحمل شيئاً من الاسقاطات «الطوباوية» والتلميحات الحادة، بتحميل النقص في خدمات ذلك القطاع الخدماتي، الذي يديره الموظف المسؤول الكبير إلى وزارة معالي الوزير نفسه.

وليس من شك أن أي حوار - يدور بين طرفين - إذا خرج عن أهدافه ولغته ومقصده، فلابد أن يحتاج إلى تدخل طرف ثالث محايد وقوي وذي رؤية متزنة وضمير يقظ وصلاحية يستطيع أن يحكم على حقيقة الوضع القائم الذي ينتقده مدير القطاع الخدماتي مبررا أن كل ما في الجهاز من أخطاء وعيوب ونقص في الخدمات، إنما يعود إلى تأخر الوزارة في تحقيقها له، وأنه غير مسؤول عن ما يحدث وما وصلت إليه الخدمة من تردٍ وتدهور في هذا القطاع، رغم أن له حوالى خمس عشرة سنة وهو على رأس إدارته، وبصلاحيات تكاد تكون كاملة وشاملة وواسعة.

وفي ظني، أن أي خلاف يصل إلى ذروته أو إلى طريق مسدود مع أي وزير أو رئيس أو مدير، ويعتقد الموظف أنه على حق ورؤساءه على خطأ، فالحل الوحيد أن يبادر بتقديم استقالته فوراً ويترك الموقع ليتسلمه غيره. ومع الأيام سيكتشف الناس، كما سيكتشف رئيسه نفسه ما إذا كان موظفه على حق أو على باطل. وكم من مسؤول أبدى وجهة نظره حول احتياج إدارته إلى بعض التدعيم، وعندما لم يجد تجاوباً قدم استقالته ورحل، لكنه بقي في أذهان الناس، عندما اكتشفوا - بعد أن تردت الخدمة أكثر في الإدارة من جراء استقالته - ،أنه على حق في وجهة نظره. وبالمقابل، كم من مسؤول آخر تشبث بالكرسي وأخذ يناور ويحاور ويلقي بتبعة تردي جهازه على القيادة الأعلى، إلى أن تحول قطاعه إلى جثة هامدة إدارياً ومالياً. والسبب هو إصراره على التمسك بالوظيفة والكرسي، إلى أن يفاجأ بإحالة

التراب عليه وعلى قطاعه.

هناك فرق بين أن تظل حيا حتى وأنت تحت التراب، وأن تموت وأنت فوق التراب. وعليك أن تفكر يا صديقي المسؤول بما يجعل الناس يذكرون إنجازاتك الماضية، وإياك أن تعتقد أنني أقف في صف الوزير ضدك، ولكني مقتنع دائماً بالمثل الذي يقول: «إذا كثر ربابين السفينة .. غرقت». وإنني أخشى على هذا الجهاز – الذي له علاقة بصحة الناس – أن يغرق في محيطات الخلاف، وبحار التناحر والعداء.

صباح الأحد الماضي، ضحكت حتى كدت أن أستلقي على قفاي، وأنا أتصفح الجرائد وهي تحمل ذلك الخبر السعيد لفئة ذوي الدخل المحدود، والمتمثل في إعلان أمانة مدينة جدة عن منح الأراضي التي بلغت ١٣٩٨٠ قطعة، والتي لم تحدد الأمانة مكانها على خريطة المدينة. ولكنني تصورتها ليست بعيدة كثيراً عن كورنيش البحر وعن تلك الأسوار التي تحجب الرؤية عنه!

وتصورت أكثر، أن من أخذ المنحة في هذا المكان لابد وأن يكون على مستوى المنطقة والحي، التي منحته الأمانة ليقيم عليها مبنى لا يقل عن قصر، ولا يزيد على ناطحات السحاب المتلاصقة على امتداد البحر، أو يبيعها ويترك مثل هذه المشاريع الكبيرة لغيره ويحتفظ بملايينها في البنك، أو يشغلها في سوق الأسهم ويضع رجلاً على رجل ويأكل ويتمتع من أرباحها مدى الحياة.

كل ذلك تصورته، ولكنني عندما استعرضت الأسماء، أُسقط في يدي وترحمت على من دفن منهم تحت التراب قبل أن يُعْلَنَ عن منحته، وقلت في نفسي «الرمد ولا العمى»، فعسى ولعل أن يستفيد من هذه المنحة ورثة المرحوم، إما ببناء قصر بالقرب من الكورنيش، أو بالبيع واستثمار قيمتها في مشاريع تدر عليهم دخلاً، لم يحلموا به في حياتهم ولا في حياة مورثهم، الذي حفيت أقدامه وهو يعقب على معاملة هذه المنحة، التي لم تظهر إلى النور إلا بعد أن شبع المرحوم موتاً.

وحتى لا يكون الأمرُ مجرد تعريض بالأموات والأحياء من الذين وردت أسماؤهم في بيان المنح الـ ١٣٩٨٠، إلا أنني أؤكد لكم أنني باستعراضي للأسماء، وجدت أكثر من واحد أعرفهم تمام المعرفة، قد انتقلوا إلى رحمة الله، ولم أدر انهم في حياتهم كانوا يعقبون على منح أراض في البلدية، كل ما أعلمه هو أنهم كانوا من الذين يعيشون على قوت يومهم، ومن نوع الأشخاص الذين إذا رأيتهم تحسبهم أغنياء من التعفف. ومع ذلك يسكنون بالإيجار طوال حياتهم ووسيلتهم الوحيدة في مواصلاتهم كعوب أقدامهم.

ترحموا معي على الأموات، الذين ماتوا قبل الحصول على منحة الأرض، حتى لو كانت بعد الخُمرة في جنوب جدة، أو بالقرب من رابغ شمالاً، أو بالقرب من عسفان شرقاً، حيث مِنَحُ الأساتذة الجامعيين الذين لم يترك بعضهم الفرصة لزميله الأستاذ الكادح، وهو الذي عنده أكثر من منحة وفي أكثر من مدينة، ومنزله – ما شاء الله – «يشن وين» في أرقى أحياء جدة حداثة!

ثم ادعوا معي لأصحاب المنح، الذين ما زالوا على قيد الحياة، والذين وردت أسماؤهم ضمن

المشمولين في قائمة المنح المنشورة يوم الأحد الماضي، أن تطبق لهم في مكان لا يخلو – على الأقل – من كائن حي كماشية أو دابة، والتي على الأقل يمكن أن تؤنس عليهم وحدتهم، إلى أن تصلها الخدمات التي أشك شخصياً في وصولها وهم ما زالوا أحياء يرزقون.

وعلى أية حال، فهم ليسوا بأحسن حال ممن سبقوهم طالبي المنح الذين ماتوا وتركوها لورثتهم للتعقيب عليها. والفرق الوحيد أن الذين حصلوا عليها قبل موتهم لن يتمتعوا ببنائها قبل أن «يفطسوا» ويموتوا، بسبب تأخر وصول الخدمات التي سيكون وراءها مشوار طويل طويل من السنوات يا ولدي!

موقوف الـ «48» ساعة؟!

لا أتصور، أن يعيش حي من أحياء جدة الكبيرة والواسعة بدون عمدة حي، يلجأ إليه المحتاج في يومي الخميس والجمعة، عندما تضطره الظروف إلى ذلك.

أما وقد أصبحت الأحياء بدون عُمَدٍ خلال يومي الخميس والجمعة، فهذا أمر غريب، والأغرب منه أن تحتاج إلى ختم العمدة فلا تجده في مكتبه.

فماذا يفعل من عنده قضية بسيطة في المرور أو قسم الشرطة، ويحتاج إلى توقيع العمدة وختمه في يومي الخميس والجمعة؟ هل ينتظر إلى صباح السبت في غرفة التوقيف لتصديق أوراق الكفالة، ثم يفاجأ بأن العمدة لا يداوم في مكتبه يومي الخميس والجمعة؟.

لقد اضطر أكثر من موقوف في أحد أقسام الشرطة أو المرور إلى أن ينتظر ٤٨ ساعة من يوم الخميس إلى يوم السبت، بسبب عدم تواجد العمدة ليصدق له على الكفالة التي يترتب عليها إطلاق سراحه. وكان من المفترض أن يكون عمدة الحي في حالة طوارئ، مثله مثل كل أقسام الطوارئ من شرطة ومرور ومطافئ وإسعاف، بدل أن يظل الموقوف ٤٨ ساعة إلى أن يفتح العمدة مكتبه صباح السبت.

إن مثل هذا الإجراء الروتيني العقيم، يحتاج إلى تدخل سريع في إمكانية تلافيه، لأنه ليس من المنطق ولا المعقول أن يظل السجين يومين كاملين موقوفاً بانتظار حلول يوم السبت، حيث يداوم العمدة. وعلى شرطة جدة أن تتدخل لحل مثل هذا الإشكال، الذي يؤثر على سمعتها ويعطل بالتالي مراجعين، ما كان لهم أن يتعطلوا لو كان عمدة الحي في خدمة الناس، مثله مثل كل خدمات الطوارئ الأخرى.

إنني آمل في حل سريع لهذه المشكلة، خاصة إذا كان تصديق الأوراق لمجرد حادث تصادم بسيط ولم تنتج عنه إصابات بشرية، ويمكن من خلاله إطلاق المتصادمين بكفالة أحد الأقرباء إلى يوم السبت، حيث يتعهدون بتصديق الأوراق من العمدة يوم السبت، بدلاً من أن يقبع قريبهم في التوقيف إلى يوم السبت.

ثبت بالدليل القاطع، وبما لا يدع مجالاً للمزايدة، أن أعمارنا ضاعت سدى ونحن نحاول أن ننشد الإصلاح ونطلبه، ثم نكتشف أننا إذا تقدمنا خطوة، سبقنا هو «الإصلاح» ،خطوتين هارباً.

ولا شيء يؤثر على الصحفي ويصيبه بالإحباط والاكتئاب، سوى أن يرى مشكلة، أو عيباً، أو لنقل خطأ يُرتكب، ثم يكتب عنه العديد من المقالات وينبه إليه، ويكتشف أن المشكلة ما زالت موجودة، والعيب يزداد، والخطأ يستفحل، ولا شيء يتغير سوى اشتعال رأسك شيباً، وتجعد عضلات وجهك، وسحب قدميك بتثاقل في طريقك إلى أحد المشافي، لمزيد من الأدوية والمضادات الحيوية.

أمثال بسيطة..

على مستوى منح الأراضي مثلاً.. يمر الزمن، وينتهي العمر والملفات متكدسة في الأراشيف، وعمر صاحب المنحة يتآكل، وقد يموت، ولا يفوز بأمنيته الوحيدة في أن يؤوي أسرته على الأقل من بعده. تلك الأسرة التي ربما تعيش على الكفاف، بينما الذين أغناهم الله من واسع فضله، يتزاحمون على طلب المنح فيحصلون عليها بين عشية وضحاها. كيف .. كيف؟

وكم هي المقالات، والتحقيقات، والتصريحات التي ناقشت و«عادت وزادت» في مشكلة المياه والصرف الصحي منذ حوالى خمس وعشرين سنة، لدرجة أن بعض الكتاب أصابهم الإحباط من كثرة تكرار الكتابة عن هذه المشكلة، أما الصحفيون فقد تحولت تحقيقاتهم وروبرتاجاتهم إلى مواضيع أخرى أكثر «سطحية» وخفة، بحيث لم تعد تسمن ولا تغني من جوع.

ثم هذا الروتين البغيض الذي يمسك بتلابيب كل موظف وكأنه جزء من حياته اليومية، كبر أو صغر، والذي لا يمكن أن يتوافق مع مظهره الخارجي، من نظافة هندامه والسيارة التي يركبها والمنزل الذي يعيش فيه.!

ولا أعتقد، أن مدينة كجدة يمكن أن تقنعك بتطورها بأكثر من انتشار وارتفاع الكتل الأسمنتية، مع بعض الجماليات والأشجار المزروعة على جنبات الشوارع، بينما التغيير الذي نريده هو التغيير في داخل النفس البشرية، سواء كان هذا الإنسان موظفاً أو عاملاً، أو رب أسرة، لا أن يأخذنا الغرور ببعض المبالغات، مثل «أحسن مدينة في الشرق الأوسط»، و «أكبر صرح طبي في العالم»، و «أكبر سوق مركزي تجاري عالمي»، بينما التعقيب على معاملة، أو شراء سلعة غير مغشوشة، أو تكحيل عينه بمناظر تسر العين والخاطر، أصبحت ترفا لا يجب حتى أن نحلم به.

وإلى أن يتم التغيير من دواخلنا، علينا أن نصبر ونتصبر على هذا التشويه الذي يحدث لكل مناحي حياتنا، وما دام ليس لنا حول ولا قوة إلا الدعاء بأن يوفق الله الكبار من المسؤولين الجدد على إزالة هذا التشويه، الذي تضيق به الصدور صباح مساء. وقد وصل التراخي واللامبالاة حد السماء لدرجة أن أغلب الأشياء التي تشاهدها في طريقك، لم تعد واضحة المعالم، فلا هي سوداء ولا بيضاء، وإنما ألوان لا نقدر على التمييز بينها، إلا إذا استخدمنا التيليسكوب الذي يستخدم في رصد النجوم والأجرام السماوية! .

لم يشفع لها دخولها مكتب الاشتراكات التابع لشركة الاتصالات وهي محجبة، ولم يظهر منها إلا وجهها، ومع ذلك صدمتها تلك الكلمة التي تعودوا على مقابلة كل امرأة تراجعهم بها والتي تقول: هاتي ولي أمرك!

فتحت شنطة يدها فأخرجت لهم جواز سفرها السعودي الذي يحمل صورتها وتسافر بموجبه، كلما اضطرتها الظروف للسفر.

حتى هذا لم يكن كافيا، وكرروا عليها نفس الاسطوانة: هاتي ولي أمرك! وحاججتهم بالمنطق، فما قدمته لهم من إثباتات، كافية لإثبات شخصيتها، إلا أن منطقها ذهب أدراج الرياح وهم يكررون عليها الكلمة قائلين وبراءة الأطفال في أعينهم: لابد من حضور ولي أمرك.

قالت: وإذا كان مسافراً ماذا أفعل؟ قالوا : انتظريه حتى يعود وراجعينا! قالت : أمن أجل مراجعة بسيطة تخص هاتفي الجوال، تطلبون ضرورة إحضار ولي أمري ؟

وردوا عليها هذه المرة بحزم : هذه الأنظمة والقوانين ولابد من تطبيقها.

وتذكرت في هذه اللحظة المتأزمة كرت بطاقة العائلة التي تحمل أصلها، التي تركها زوجها لها وسافر، فقد تحتاج إليها في أمر مهم أثناء غيابه.

فتحت شنطة يدها مرة أخرى فأخرجت اصل بطاقة العائلة وقدمتها للموظف، عسى أن تشفع لها بإنهاء الأمر الذي راجعت من أجله، ولكن هيهات .. حتى إبراز أصل بطاقة العائلة، لم يشفع لها وينهي موضوعها.

قالت بعد أن نفد صبرها: والحل؟

ردوا عليها هذه المرة بكل برود: ما قلنا لك منذ البداية عليك إحضار ولي أمرك. أخيراً، عندما لم تنفع مبررات المنطق معهم، ولا الأوراق الثبوتية التي لا تشوبها شائبة، سواء كان جواز سفرها الذي يحمل صورتها، أو أصل بطاقة العائلة الذي يحمل اسمها ضمن أفراد عائلتها. وعندما لم تنفع كل هذه الثبوتات، خرجت من مكتب الاشتراكات مكسورة الخاطر مهمومة، وهي السيدة العاملة التي تحمل أعلى الشهادات، من أجل المساهمة في نهضة ورقي وتقدم بلدها في كل المجالات، لكنها صدمت، عندما عجزت – بكل ما تحمله من منطق مقنع – في أن تحصل على حقها في الحصول على شريحة بديلة لهاتفها الجوال، الذي سرق داخل أحد قصور الأفراح.

وكتمت غيظها في قلبها انتظاراً لعودة ولي أمرها من سفره، لتقدمه لاشتراكات حي السلامة لتحصل بموجبه على شريحة بديلة.

وإلى أن يعود الزوج، فليس أمامها إلا أن تدعو الله بأن يعجل بوصوله، أو أن تدعو على شركة الاتصالات.

هانت يا أم الصابرين؟!

يتفطر قلبي على تلك الوالدة الحزينة التي يقبع ابنها وفلذة كبدها، وراء قضبان السجن، وهي لا تعلم عن ذلك شيئاً.

ولم يشأ المقربون -وهم محقون، بناء على طلبه -أن يخبروها أن ابنها مسجون، لكي لا تقع على الأرض ويحدث لها ما لا تحمد عقباه، خاصة انها امرأة مسنة وتعاني من العديد من الأمراض التي قد تنهي حياتها في أية لحظة. فما عساه قد يحدث لها لو علمت أن وحيدها الذي لم تنجب غيره، مسجون في قضية، ومحكوم عليه، ولابد من إكمال مدة العقوبة داخل جدران السجن، شأنه شأن كل المساجين الآخرين.

وما زال المقربون – كلما ألحت في السؤال عن ابنها – يقولون لها أنه يعمل في مدينة أخرى. وعندما تصر على السفر إليه يصبرونها بالقول أن المسافة بعيدة جداً، ولا تجد أمامها إلا البكاء وطوفان الدموع. وحين تطلب أن تسمع صوته عن طريق التليفون، يأتيها الجواب أشد قسوة بأن مقر عمله بعيد، ولا توجد به وسيلة اتصال.

وتسأل: وما هو الحل؟ فيقولون: ليس لك غير الصبر.

وعندما تقول: إن قلبي يحترق وأنا أرى خياله في صحوتي ومنامي، وأكاد -كلما طرق أحدٌ الباب، أقفز من مكاني معتقدة بأنه هو، فيردون عليها:

هانت يا أم «...».

وفي بادرة رائعة وإنسانية جميلة، يتقدم أحد الجيران من الذين أحرقتهم تساؤلات الأم المتكررة عن مصير ابنها إلى أحد رجال الأمن المسؤولين، يعرض عليه المساعدة في أن ترى الأم ابنها بعيداً عن قضبان السجن، حتى لا يحدث ما لا تحمد عقباه وتسقط المسكينة ميتة .

قال رجل الأمن معتذراً: لا أستطيع أن افعل شيئاً، وليس من حقي أن أطلق مسجوناً يقضي عقوبة محددة دون انتهائها، ولكن يمكن أن تراه والدته في غرفة منفردة داخل أسوار السجن.

وعندما لم يصل المتوسطون إلى نتيجة مع مسؤول الأمن، عادوا منكسرين من نظام لابد أن يحترم.

هم يرون أحقية أن ترى الأم ابنها بعيداً عن قضبان السجن، وذلك من منطلق إنساني، ورجل الأمن في نفس الوقت يرى أن الأنظمة والقوانين تمنعه من أن يطلق مسجوناً لم تنته محكوميته، لكن هناك سؤال بكثافة غزارة دموع هذه الأم المكلومة هو، كيف يمكن أن يوجد حل وسط يسمح ويجيز للأم برؤية ابنها

خارج أسوار السجن، كونها ما زالت معتقدة بأنه يعمل في مدينة أخرى، خشية أن تعلم الحقيقة التي قد تؤثر عليها وتصبح كارثة الأسرة كارثتين؟ أم أن النظام يظل نظاماً مجرداً من المشاعر أمام مأساة هذه الأم المتفطر قلبها على رؤية ابنها ولو لحظة واحدة؟

والبؤس في عينيها!!

قالت ابنتي ذات الثماني سنوات : أبي أريد أن احضر معك إحدى مباريات كرة القدم!؟

قلت: لا يمكن يا ابنتي؟

سألت: لماذا؟

قلت: البنات ممنوعات من حضور كرة القدم في الملاعب، ويمكنهن الفرجة على المباريات عن طريق التلفاز فقط لا غير.

قالت: ولكنني أنا صغيرة الآن، وقبل أن تصدر «فرماناتك» في المستقبل بالممنوعات من نوع «لا تخرجي إلى الشارع».. «تكلمي بصوت منخفض»، أرجوك أن تحقق أمنيتي في الحضور معك إحدى مباريات كرة القدم في الملعب، لأرى عن قرب كيف تهوج وتموج هذه الجماهير -تهوج وتموج من عندي- لأن تسليتنا الوحيدة نحن البنات حتى الصغيرات مثلي محدودة جداً وهواياتهن لا تتعدى اللعب مع «العرائس»، أو الخروج مع ماما إلى السوق، عندما تريد أن تشتري لنا بعض أغراضنا.

واستفتيت في المسألة بعض الأصدقاء، ومنهم من قال: خذها يا أخي تتفرج فالبنت صغيرة ولا يحتاج الأمر إلى كل هذه الحساسية، إلا أن البعض الآخر قال بغضب متنمراً: عيب يا رجل تأخذها .. ويجب من الآن أن تلبس الحجاب والطرحة وتجلسها في البيت ولا تكشف على الرجال!

احترت بالفعل، لكن إصرارها الغريب جعلني أضعف أمامها، إلا أنني اشترطت عليها لو ذهبنا للملعب ومنعوا دخولها، فسأتركها تنتظر في السيارة، على أن أذهب وأشاهد المباراة وأعود إليها.

وكأنها لم تصدق ما سمعت، واجتاحتها فرحة كبيرة وكأنها سوف تدخل التاريخ من أوسع أبوابه، لأنها سوف تدخل ملعبا لكرة القدم، قبل أن تكبر وتمنع من ذلك .. بل ربما ستمنع من أشياء كثيرة أخرى في قادم الأيام، ليس بحكم الشرع، بل بحكم العرف، كقيادة المرأة للسيارة.

وحتى لا تطول الحكاية، فقد أخذت «آلاء» إلى الملعب يوم مباراة الاتحاد والأهلي الأخيرة، للاستفادة من دخول الجماهير المجاني في كل مباريات كأس الملك، لكن لا أدري كيف تَعَكَّسَ المشوار وعدنا من منتصف الطريق، بعد أن نصحنا أحدهم بالتليفون الجوال، بأن هناك خطورة على الصغيرة من زحمة الجماهير أثناء الخروج، وأن أؤجل صحبتها إلى مباراة أخرى اقل أهمية وحضورا جماهيريا .. وعدت، وعادت معي الصغيرة والبؤس في عينيها!!

ورقة التوت الأخيرة!!

لو لم تكن للقنوات الفضائية إلا حسنة وحيدة والمتمثلة في «الفرجة» على الضرب والمضروب، والشتم والمشتوم في بعض المجالس البرلمانية والنيابية، لكفى.

و أمارس –بين حين وآخر –بعض هواياتي المكبوتة في التنقل بين هذه القنوات بحرية كاملة، بحثاً عن عضو مجلس أمة أو برلمان يشتم زميله العضو الآخر أو يقوم «بنتف ريشه»، ثم بعد ذلك يعمد بعض الأعضاء الآخرين، أو رئيس المجلس إلى مبادرة «فض الاشتباك» بينهما، وعلى طريقة الصبيان الصغار الذين «يحرشون» عادة بين اثنين. وبعد أن يشبع كل طرف من الآخر شتماً ورجما، يتدخل الصغار للفزعة وفي دواخلهم رغبة أن تستمر المعركة، ليصفي كل طرف منهم الآخر.

وإنني لسعيد – والله العظيم – بأن من يدَّعون «خدمة الشعوب» وتقرير مصائرها، لا يلبثوا أن يظهروا أمامنا على حقيقتهم وبدون حتى ورقة التوت.

ويبدو أن هذه الطريقة عربية الأصل، وكانت خافية علينا، عندما كانت مجالس البرلمانات والمجالس النيابية تدار جلساتها في غرف مغلقة، لا يعلم بها أو يراها غير أناس محدودين، أما وقد انكشف الفضاء، وأصبح العالم قرية صغيرة، فقد بدأ «يُكشف المستور» في «عالمنا الثالث»، وبدأنا نرى ما لم نكن نراه، لو لم تقدم لنا بعض تلك القنوات ذلك «المعروف» الذي قد يخفف من حنقنا عليها، بسبب بعض البرامج التافهة والرديئة والاتصالات «السخيفة» من أناس هم أكثر رداءة وأسقم تفكيراً.

إن الإدعاء دائماً بأن الديمقراطية والرأي الآخر في الوطن العربي، هو هدف من أهداف هذه المجالس والبرلمانات لم يعد صحيحاً، خصوصا حين ترى هؤلاء – لدى مناقشة أبسط المشروعات – يتشاتمون ثم يتضاربون، وقد يصل ببعضهم الأمر إلى استئجار «مقاولين من الباطن»، لتصفية بعضهم البعض.

ويرحم الله ذلك الرجل المسمى «عبدالله القصيمي» الذي قال منذ سنوات طويلة إن العرب «ظاهرة صوتية»، والذي أشبعناه حينها نقداً وتقريعاً. ولم ندر أن الأيام ستكشف لنا الوجه الآخر من حقيقة هؤلاء الذين يدعون أنهم يخططون لمصائر شعوبهم. وفي أول امتحان مكشوف أمام هذه الشعوب يسقطون إلى القاع!! بل إنه السقوط المريع الذي لن تقوم لهم بعده قائمة.

لقد بلغت بهم «حمى التطبيع» مع إسرائيل حد الهلوسة والهذيان، وكل ذلك بفضل الدولارات التي تسقط عليهم من سماء تل أبيب وجبال واشنطن.

«شبح» ٦٠٠ يقطع الإشارة أمام الله وأمام الناس.

وعندها تذكرت -أنا العبد الفقير إلى رحمة ربه -لماذا تغلبت على ظروفي المادية وامتلكت «شبح ٢٠٠» وذلك لكي أحمي نفسي – على الأقل – من تعسف بعض رجال المرور، الذين كل ما يهدفون إليه هو التفاخر أمام رؤسائهم بعدد المخالفات التي يضبطونها، حتى لو كان بعضها ظلماً وبهتانا.

ولهذا أقول لصاحب الرسالة: ها أنذا انشر معاناتك وأنصحك أن تحاول التغلب على ظروفك وأن تشتري لك سيارة فارهة، لكي لا تدخل غرفة التوقيف مرة أخرى، والمثل يقول «الصيت ولا الغنى».

ولماذا الآن «يا هشهوش»؟!

تمنيت أن لا أكون يوماً في موقف المدافع عن الخطوط السعودية والتي - والحق يقال -أنها تمتلك ناصية الدفاع عن نفسها بطريقة أو بأخرى.

ونحن نعرف -بالتأكيد - أخطاء الخطوط السعودية، مثل ما نعرف حسناتها طوال سنوات مسيرتها «الطيرانية» التي قد أكملت عامها الخمسين. ولكنني لا أذكر - طوال مشواري الصحفي - أن كاتبا اسمه «هشهوش»، والذي كان عضوا في نادي «المداحين» طوال تاريخه، يصبح اليوم «ناقدا» لخدمات الخطوط السعودية. وهو الأمر الذي كان موضع استغراب لدى البعض، وتساؤلهم في نفس الوقت، عما إذا كان هذا التحول بسبب اختفاء مكاسب خاصة أو تصفية حسابات جديدة؟

صحيح، أن كثيرا مما كانت تقدمه السعودية لبعض الصحفيين والكتاب من امتيازات قد تبخر وطار، لكن، على أي حال، يكفي احترام القارئ واحترام بعض المسؤولين في السعودية ، لبعض الكتاب الذين رفضوا أن يستميلهم أحد للكتابة عن إيجابيات «السعودية»، والتي نعتقد أنها تحصيل حاصل لكل جهاز يريد المسؤولون فيه أن يقدموا خدمة جيدة وراقية للمتعاملين معه من جمهور، بصرف النظر إذا كان هذا الجهاز هو الخطوط السعودية التي ليس لها منافس على الرحلات الداخلية أو غيرها من المحتكرين الآخرين.

أردت فقط - من كل هذا - أن أقول: أن بعض الكتاب الذين انبروا مؤخراً لإبراز عيوب ومثالب الخطوط السعودية، بعد أن تأكد لهم أن السعودية قد أوقفت أخيراً بعض الامتيازات والخدمات التي كانت تكلفها كثيراً ودون عائد يتساوى مع هذه المميزات، والتي لو صرفت تكلفتها في تحسين الخدمات لكان لها مردود أفضل مما لو قدمت كمجاملة إلى من وصلت بهم الغطرسة والخيلاء حد اعتبارها حقاً من حقوقهم، وإذا لم تصلهم كلما طلبوها، امتشقوا أقلامهم ليقولوا للمسؤولين في الخطوط السعودية: انتبهوا نحن هنا!!

ولماذا الآن أصبح دور العلاقات العامة في الخطوط السعودية، لا يعجب بعض الكتاب والصحفيين من ذوي الامتيازات؟ بعد أن كانوا - في ما مضى - على «الخط الساخن» مع أصدقائهم في العلاقات العامة، للتنسيق حول خطط التصدي لأي هجوم أو نقد للخطوط، ومن ثم تتصدر مقالات التصدي صحفهم في اليوم التالي، لكي يضمنوا الحصول على الخدمات المميزة وما يتبعها من سفريات إلى «جزر الكناري» و «كان» و «نيس» ، بل وكل عاصمة تستطيع السعودية أن تنشر أجنحتها في سمائها.

هذا هو العدد الثامن عشر، الذي بين يدي من مجلة «الإعلام والاتصال» التي يرأس تحريرها هذا «الطويل الطويل .. الشامخ» .. هذا الذي تعلمنا منه – دون أن يشعر – كل شيء جميل ورائع، ما عدا «بخله» في أن يدعو صحفياً مثلي للكتابة، وكأن هناك موقفاً مسبقاً لعدم دعوته لي وضع تحت بند يسمى سبق الإصرار والترصد!

لماذا يا رئيس التحرير؟ هل تجدني ركنا مظلما في شارع الصحافة لا تشرق عليه الشمس ولا يزوره القمر؟ وهل «محسوبكم» ناقص الأهلية الصحفية، لا سيما وأن خلفي خمسة وعشرين عاماً، أعتقد أنها كافية لإعطائي الأحقية في أن أكتب على الأقل مقالاً يرضي القارئ، ولا يحرج رئيس تحرير أي مطبوعة أمام احتمال أن يتلقى ردة فعل عكسية، أو غير مفرحة من قراء مطبوعته؟

أم أن مجلة الإعلام والاتصال، قد ضربها فيروس من إحدى بحيرات التكبر والغطرسة، إلى الحد الذي جعل رئيس تحريرها يتجاوز محررا من فريق «اقرأ» الذين قذفت بهم الأقدار في أتون بلاط السلطة الرابعة، ثم اضطر بعد «اقرأ» إلى التشرد أحياناً، لأنه لم يجد أحداً يؤويه تحت حجج واهية وعديدة ومتنوعة، أبسطها دعوى أنه «مشاغب» ويطلب أحياناً للتحقيق.

أم أنك لا تريد مزيداً من «دوشة الدماغ» ويكفيك «كتاب» مثل تركي الحمد، وثامر الميمان، وفوزية أبو خالد؟ ولعلك تعرف يا سيدي أن «محسوبك» له خط آخر، و «لغة» أخرى مختلفة. فقد علمته الأيام السير أحياناً – أقول أحياناً – على قضبان سكة القطار، ليصل إلى المحطة بسلام .. أم أنك تعتبر مجلة الإعلام هذه رسمية وتابعة لوزارة الإعلام وليس لأمثالي مكان للكتابة فيها؟ لكن حتى ولو اعتبرها البعض كذلك، إلا أنني أعتبرها مفخرة لوزارة الإعلام في أن يكون فيها بالذات كل هذا الطرح، ولغة الحوار الراقية، وكتاب متميزون لا يجمعهم في هذا المكان غير عبدالله المناع.

فكرت طويلاً، في أن أحتفظ بهذا العتاب في أعماقي، ولكن – وأنت الأقدر على معرفتي شخصياً – لم أستطع، وقد فضحني عجزي عن الاحتمال إلا أن أكشف لك كل شيء هكذا «على بلاطة»، ودون أقنعة .. فلدي ما يكفيني من «علل» الأشياء العامة، التي أتكبد مرارتها كل ساعة وكل دقيقة بل وربما كل ثانية!! وتكاد تكون مسكونة بها شرايين بدأت دماؤها تتخثر من قسوة المعاناة وطول المدة!! صحيح أنني صحفي أخذ مشروعيته «كصحفي»، انتزاعاً من بين فكي الأسد ونجح مرة وأخفق أخرى، لكنني أعتقد أن لا أحد يستطيع أو حتى يجرؤ على أن يقول أن هذا الذي تعرفه باع مبادئه يوماً بحفنة

ريالات!

وقد لا تتصور، أن دافعي لتحرير هذه الكلمة هي «سيدة» من مدينة «كان». و«كان» هذه ليس «كان» عبد الله أبو السمح وإنما «كان» محمد الفايدي وهي مدينة أملج النائمة على صدر الساحل الشمالي الغربي، وعندما طلبت مني هذه السيدة أن أشترك لها في مجلة الإعلام والاتصال، لأنها – وكما قالت – تتابعها وتحرص على اقتنائها أولاً بأول. ولكنها كبدوية لا تستطيع الدخول دائماً بسيارتها إلى داخل مدينة أملج، وتريد أن تصل إليها المجلة في مدرستها خارج المدينة .. قلت: يا الله «سيدة ومدرسة» وتريد أن تقرأ مجلة الإعلام والاتصال في هذا المكان البعيد، ثم لا تقرأ «لبدوي» من أبناء جلدتها مثلي في هذا الموقع القصي؟ عندها أصررت على أن أفعلها ولو من باب العتاب أولاً .. وثانياً من أجل أن تقرأ لي هذه البدوية «قريبتي» شيئاً في هذه المجلة، وربما للمرة الأولى والأخيرة.

فجأة، استيقظت من نومي فجر الأحد قبل الماضي على رنين التلفون المتواصل في الخامسة صباحا. وبمجرد أن رفعت السماعة، وإذا بذلك الصوت يقول:

– الو .. ألو..

– نعم .. نعم..

– صباح الخير

– صباح النور

– الشيخ محمد الفايدي!!

وحيث أنني لا أستغرب – في مجتمعنا – إطلاق كلمة «الشيخ» على كل من «هب ودب»، فقد التزمت الصمت قليلاً ثم سايرته وقلت له: معك «الشيخ» محمد الفايدي..!!

وإذا بالرجل – وبصوت حزين ومتهدج – يقول لي: عظم الله أجرك في ابنك وكلنا لها.

وكنت حتى تلك اللحظة، لم أفق من النوم ولم أفهم .. إلا أنني قلت له مع ذلك جزاك الله خيراً، لكن سؤاله الثاني كان كفيلاً بأن يجعلني في كامل وعيي، عندما قال: متى سيغادر سعادتكم إلى باريس؟! وهنا أشكل علي الأمر تماماً وأصبحت في حيرة، هل أجاري الرجل أم أصحح له المعلومة، بأنه لابد أن يكون «غلطان» في النمرة أو في الشخص.

فلم أكن أعلم – حتى تلك اللحظة – أن في عائلة الفايدي شيخاً ولا «مليونيراً» لديه طائرة خاصة!! وعلى أي حال، لم أدع للرجل مجالا للشك بأنني ذلك «الشيخ» الذي أصبح يعزيه من يعرفه ومن لا يعرفه، وقلت له : سأكون في باريس إن شاء الله في آخر النهار!!

قال: مع السلامة.وأقفل الخط.

وأسرعت للاطمئنان على ابنتي الوحيدتين «انتظار» و «آلاء»، فوجدتهما تغطان في سبات عميق وحمدت الله، وذهبت لأصلي الفجر.

وفي الصباح، وأنا على مكتبي، علمت بالخبر الذي استيقظ على وقوعه العالم وإعلامه، بكل قنواته وصحفه، على موت الأميرة الجميلة «ديانا» وصديقها «عماد الفايد»، ابن الملياردير «محمد الفايد»، صاحب محلات «هارودز» في لندن. وحزنت فعلاً، وتذكرت في الحال سبب المكالمة التي أيقظتني من النوم، لكن المضحك المبكي أن المكالمات تواصلت على تعزيتي، بعضها من باب المزاح والتندر،

وبعضها من أناس يعتقدون فعلاً أنني محمد الفايد والد عماد الفايد، صديق الليدي ديانا. ولعل الخلط ناتج من أنه ليس هناك فرق بيني وبين الملياردير محمد الفايد سوى حرف الـ«ي»، هذه المزعجة التي كانت غصة في حلق عائلة الفايدي، التي تمنيت أن لا تكون موجودة، لأنني عندها سأنفذ خطتي المتوقفة على ذلك في بعض أصدقائي – الذين هددتهم منذ زمن – أنني لو اغتنيت «سأطأ في بطونهم»، بعد أن حددت لكل منهم وظيفته التي تليق به في إمبراطورية «الفايدي»!

لم يحسب حساباً للزمن ..

نسي أنه سيترجل من ذلك الكرسي الدوار يوماً ويحال إلى التقاعد، ويصبح مواطناً عادياً.

كان مسؤولاً، لم يمض على تركه الخدمة وإحالته إلى التقاعد سوى فترة قصيرة. وحين كان في منصبه، كان الطاووس يغار من مشيته، وكانت خيلاؤه تسد عين الشمس .. والويل للساعي الذي يعمل في مكتبه، إذا لم يسبقه إلى موقف السيارة، ليفتح له الباب، ويحمل له «الشنطة»، ويهرول أمامه لفتح باب المصعد وإحداث حركات مختلفة، ليعلم بقية الموظفين أن «سعادة» المدير وصل.

الدعوات على مكتبه لا حصر لها، ويصل الأمر ببعض المتزلفين في المجتمع، من إحضار كروت الدعوات بأنفسهم. ولا يغادرون المكتب إلى أن يحصلوا على موافقة سعادته بتشريفهم بالحضور.

صورةُ في الجرائد لا تختفي بين الأسبوع والآخر، حتى لو أصابته أنفلونزا، أما تصريحاته النارية بأنه عدو الروتين، وتعطيل مصالح المراجعين، وأن باب مكتبه مفتوح طوال فترة الدوام، فهي تصريحات لا تفارق لسانه، خصوصا أثناء وجوده في الدعوات العامة أو الخاصة.

لكن التظاهر و «الفشخرة» شيء، والواقع شيء آخر. فمراجعو إدارته لا يرون إلا إلا الطوابير، والحاجب الذي يتحكم في دخولهم وخروجهم، أما الشروحات التي على معاملاتهم فهي «أكوام» من الألغاز، التي لا يستطيع المراجع فك رموزها ومعرفة معناها، هل هي موافقةٌ أم رفضٌ أم «زحلقة».

ولم يحدث أنه شرح شرحاً ملزماً بإنهاء إجراءات معاملة ما فوراً، إلا لمن يقدمون له الدعوات أو الذين يقيمون له الولائم .. ومن يخدمون أغراضه الخاصة كتركيب تلفون، أو توصيل كهرباء، أو تأكيد حجز، أو صفقة «بزنس»، لشراء قطعة أرض في موقع استراتيجي في مكان ما.

التلفونات على مكتبه لا ترن وتصهل، إلا على صوت صديق، أو قريب، أو الزوجة الكريمة التي تذكره بموعد العشاء الليلة عند عائلة فلان.

لم يحسب حساباً للزمن .. ولم يقدر – يوما ما – أنه سيصبح رجلاً عادياً قد يحتاج إلى «آخرين» في إدارات أخرى، من الذين احتاجوا إلى إدارته يوماً ولم يجدوا إلا العناء «وحرقان الدم»، في إنهاء إجراءات معاملاتهم.

وهاقد جاءت لحظة التقاعد، وغادر كرسيه حزيناً. وقد اسودت الدنيا في وجهه، واعتكف في منزله لعدة أيام، لم يطرق خلالها بابه «شبّاب النار» ، بعد أنه كانت تلفوناته لا تهدأ، ومكتبه لا يخلو من

أصحاب المصالح، ومنزله يستقبل ويودع الموظفين الوصوليين وبعض أصدقاء المناصب وبعض من يريدون أن ينالهم شيء من بركاته ورضائه عليهم. وتحول شارع منزله – فجأة – إلى شارع غارق في الظلام بعد أن كان يسبح في برك النور والبلور. وبقي وحده ينظر إلى الأنوار المطفأه التي كانت تذكره بمنصبه ،الذي لم يحاول هو أن يبقي فيه «لمبة» مضاءة واحدة تؤنسه بعد خروجه من ذلك المنصب.

لكن الأكثر من ذلك، عندما ذاق من نفس الكأس التي كم كان يسقي منها مراجعيه، فقد اضطر في الأسبوع الثالث من تقاعده إلى مراجعة إحدى الإدارات الحكومية ، وإذا بأحد الموظفين الذين ذاق من سعادته الأمرين حين كان يراجع إدارته، يتعرف عليه، وكانت فرصةً كم تمناها.

وحين قدم سعادة المدير «المنتهي الصلاحية» أوراقه لذلك الموظف المغلول، بدأ الأخير في تقليب الأوراق والنظر فيها لمدة لم تزد عن الدقيقة الواحدة ، وعندها ثار سعادة المدير وقال له :

– ألا تعرف من أنا ؟!

وتجاهل الموظف معرفته وسأله باستخفاف:

– من الأستاذ ؟

فرد عليه بحدة وأعلن عن اسمه ومنصبه الذي كان. وبدون أن يرفع الموظف رأسه من على مكتبه، ألقي إليه بتلك العبارة التي يستعملها بعض الموظفين في كل مناسبة وقال له:

– تعال بكرة.. والتفت إلى مراجع آخر.

ولا تسألوا من هو، فهو واحد ولكنه نموذج، وحاله حال كثير من أولئك الذين يتلذذون بتعذيب الناس.

«واللي على رأسه بطحه يحسس عليها».

المكان: سور الحوامل.

الزمان: ليس مهماً..!

حقاً إنه حذاء من ذهب!!

فقد رأيت «بنت أبوها» ترفعه عالياً وتنزل به على رأس ذلك «الوغد» المعاكس، الذي لم يكن أمامه غير التواري خجلاً، ثم ولى الأدبار هارباً منكس الرأس، بعد أن ترك خلفه غترته وعقاله وفردة من صندله مبعثرة على الأرض.

كان ذلك أمام سور الحوامل، في آخر امتداد شارع المكرونة بالقرب من دوار الهندسة بجدة.

وإن كان هناك بعض الحوامل اللاتي يسرن وبجوارهن جيش عرمرم من الخدم والحشم والمرافقات اللاتي يدفع بعضهن الشباب إلى معاكستهن، لما في طريقة مشيتهن من تمايل وغنج وذلك للفت الأنظار.. وخلال لحظات، تفتح نوافذ السيارات وتتناثر أرقام التليفونات هنا وهناك، وأصوات تشبه الهمس، وكلمات تخدش الحياء. وإن لم تكن واضحة، إلا أنها تؤدي إلى نفس المعنى والهدف المنشود، الذي أدى إلى وجود بعض الشباب المعاكس هنا.

ولم يعد هذا السور مقصداً للتمشية والرياضة وتخفيف الوزن من قبل بعض النساء، بل سورا لعرض أحدث الأزياء، وطرقعات الكعوب العالية، والاستعراض والتباهي بعدد السائقين وعدد السيارات وأحدث الموديلات، من قبل السائرات في هذا المكان.

الخادمة تحمل الشنطة وأدوات الماكياج، والعمة تسير خلف الخادمة لتمسح لها الطريق، خشية أن تزل قدم «السيدة المصون» في علبة فارغة، أو يتعثر كعبها العالي في بلاطة مكسورة على الرصيف، لكن الذي لا تخطئه العين هو تجمعات الشباب في هذه المنطقة وتكوين حلقات ودوائر تعوق أحياناً مرور أو سير هؤلاء النسوة من على رصيف السور. ومع ذلك ترى «جيوب» الدوريات على بعد خطوات من هؤلاء الشباب ولا أحد يحرك ساكناً، بعد أن تحول هذا السور إلى مسرح، لا تفرق من خلاله بين من جاء يمارس الرياضة الفعلية، ومن جاءت تستعرض بأزيائها ،ومن جاء من الشباب معاكساً، ربما لقتل وقت الفراغ.

والصحيح، أن تلك المرأة الفاضلة وأمثالها اللاتي جئن لمهمة التريض والسير بجوار هذا السور، سواء الحاملات منهن أم الراغبات في إنقاص أوزانهن، لا يمكن أن يتعدى أو يتجرأ عليهن أحد، بعد أن

أتين مضطرات لهذا المكان، لأنه الوحيد من نوعه في جدة. وقد رأيت كيف تصرفت تلك المرأة الشجاعة، عندما حاول ذلك الوغد المعاكس أن يعترض طريقها. ولو فعلت كل امرأة ما فعلته هذه السيدة، لما تجرأ معاكس على أن يحوم بسيارته حول هذا السور. وكم من السيدات اللاتي يفقن بشجاعتهن كثيراً من مثل هؤلاء الشباب «المائع»، الذي أرسله ذووه إلى المدارس ليتعلم «فك الحرف»، ولكنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء تعليمه شيئا من «الحياء».

ورحم الله من كانوا «يربون».

القصور في الفهم أحياناً ميزة!

وسأظل قاصراً في معرفة الأسباب والدوافع وراء عدم تمكين بعض الشباب السعودي المكافح من قيادة سيارات الأجرة، إلا بعد بلوغ الخمسة والثلاثين عاماً، وضرورة الحصول على رخصة قيادة عمومية، بينما السائقون المقيمون يمرحون في الشوارع بكفالة الغير، وبرُخَصْ «خصوصي»!

يا سبحان الله....

هل هؤلاء الذين يحملون الرخصة الخصوصي من المقيمين، هم الأَوْلى بالأولوية في قيادة سيارات الأجرة.؟

أم شبابنا الذين يفترض أن نفتح لهم مجالات العمل، ونسهل لهم عملية الإجراءات النظامية، التي أحياناً تعوق انخراطهم في بعض الأعمال، ثم نشكو «لطوب الأرض» بأن هناك بطالة في البلد؟

إن النضوج والاستقامة لا يؤخذ بالسن. وكم من شباب في العشرينيات أكثر نضوجاً وتربية واستقامة ممن تجاوز الخمسين. وأن المسألة – في المقام الأول والأخير – تربية، وظروف معيشة ضاغطة، تجعل الشباب يقدم على أي عمل ويحرص عليه، إذا كانت الحاجة تفرض عليه ذلك.

إن إعادة النظر في نظام السن والرخصة العمومي للشباب السعودي، مطلب ضروري وملح في الوقت الحاضر.

فالشباب تمنعهم هذه الأنظمة التي وضعت في – يوم من الأيام – عندما كانت الوظائف على «قفا من يشيل».

أما اليوم، وقد صعبت الوظيفة حتى على المؤهل تأهيلاً عالياً، فيجب أن نخضع بعض الأنظمة للظروف التي يعيشها الشباب في الوقت الحاضر. وقد ضاقت فرص العمل، وعلينا أن نفكر بجدية وأن «جحا أولى بلحم ثوره».

إن بعض الأنظمة يمكن تغييرها حسب حاجة المجتمع، وإن الإدعاء بأن تحديد العمر «بخمسة وثلاثين» عاماً، والرخصة العمومي، هما اللذان يضمنان عدم حدوث بعض التجاوزات والمشاكل في سيارات الأجرة من قبل السائق السعودي، هي نظرة قاصرة، لأن أقسام الحوادث وأقسام الشرطة تمتلئ كل يوم بالعديد من مشاكل السائقين المقيمين.

بل إن السائق المقيم لديه الكثير من المشاكل التي أحدثت خللاً في تركيبة المجتمع، سواء كان سائقاً

لسيارة أجرة، أو سائقاً في داخل المنازل.

آمل أن تعيد وزارة المواصلات النظر في هذا النظام، الذي يحول بين الشباب السعودي وقيادة سيارات الأجرة. ولا أخال وزير المواصلات الدكتور ناصر السلوم إلا فاعلاً ذلك. فلا يمكن أن نحكم على بعض الظواهر من قبل الشباب السعودي بأنها تشمل الكل. ولا يمنع ذلك من وضع ضوابط وإعطائهم دورات سلوكية قبل الحصول على الرخصة الخصوصي، التي تمكنهم من قيادة سيارات الأجرة.

رسائل «مسلحفة»!

يبدو أن الزمن لم يتجاوز حتى الآن، الرسائل البريدية التي تصل إلى أصحابها عن طريق وسائل، مثل سفينة الصحراء «الجمل والحمار» ومن بعدهما سيارة «الانترناش» و «البوكس الأبلاكاش»، ولم يعد أحدٌ – فيما يبدو – يضمن أن تصل رسالته في الوقت المحدد، بعد أن أصبحت إدارات البريد تتعامل مع رسائل وجوابات الناس بطريقة «سلحفائية» بحتة، لدرجة أن رسائله تبعث من بريد المساعدية إلى موقع بجوار كوبري المربع في طريق المدينة بجدة، والمسافة لا تزيد عن كيلومتر واحد، ومع ذلك تصل بعد عشرين يوماً.

ولكي لا أتهم بالمبالغة، يؤلمني أن أضع أمامكم هذه الحكاية التي لا تخلو من بعض الغرابة، ولكنها غرابة مَن ليس له حول ولا قوة في إمكانية تلافيها أو التقليل من فداحتها.

أرادت إحدى الإدارات في جدة، والتي كتبتُ عنها بعض الملاحظات، أن ترسل رداً لي حول ما كتبته، فاتصل بي أحد موظفيها يخبرني بفحوى الرد، ويطلب مني العنوان الذي يمكن أن يرسل لي الرد عليه. وأول ما تبادر إلى ذهني أن أعطيه رقم الفاكس، ولكنه أوضح لي أن الرد لابد أن يرسل عن طريق وسيلة رسمية كصندوق البريد مثلاً، لكي يكون ردا رسميا. وكنت أشفق عليه وعلى نفسي، لأنني أعلم أن الرد لن يصل عن طريق البريد قبل أسبوع كامل.

ويبدو أنني تفاءلت كثيراً. فالأسبوع الذي توقعته، وصل إلى عشرين يوماً، والمسافة بين شعبة البريد والمرسل إليه لا تتجاوز الكيلومتر الواحد.

وتوثيقاً لما قلته للموظف، طلبت منه عند إرسال الرد عن طريق البريد أن يرسل لي صورة منه عن طريق الفاكس، ولكن وصول الرد بعد عشرين يوما – والذي كان من المفترض أن لا يستغرق أكثر من يومين أو ثلاثة – خلق لدي عشرات الأسئلة، فكيف لو كان المرسل دواء أو رسالة هامة، يتوقف عليها مستقبل شخص أو مصير «بني آدم» على هذه الإرسالية؟

وتذكرت في النهاية، أن كثيراً من أشيائنا وأمورنا تتأخر أو تضيع وسط افتقاد القدوة، وليس إدارة البريد وحدها التي تؤخر أو تتسبب في ضياع الرسائل، وإنما «الطاسة» ضائعة، ويحتاج إصلاحها إلى زمن ووقت لا أظن أنه سيأتي قريبا، خصوصا إذا مازلنا عاجزين عن وضع نظام يعوض، في حالة تعرضه لأي ضرر ناجم عن إهمال أو تقصير موظف لا يعبأ بحقوق الناس ومتطلباتها، بدلاً من مقولة «المرحوم غلطان» وكفى.

فهرس